هذا هو الإسلام

(٣)

• احترام المقدّسات

• خيرية الأمة

«شروط مكتسبة .. لا عنصرية موروثة»

• عوامل تفوق الإسلام

«شهادة غربية»

د. محمّد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإسلام
(٣)

* احترام المقدسات
* خيرية الأمة
«شروط مكتسبة.. لا عنصرية موروثة»
* عوامل تفوق الإسلام
«شهادة غربية»

الطبعـــة الأولى

١٤٢٦ هـ ــ ديسمبر ٢٠٠٥ م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

هذا هو الإسلام

(٣)

* احترام المقدَّسات

* خيرية الأمة

« شروط مكتسبة.. لا عنصرية موروثة »

* عوامل تفوق الإسلام

« شهادة غربية »

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

الفهرس

* عوامل تفوق الإسلام *

احترام المقدسات

ـ ١ ـ

فى صدر الإسلام

فى أول لقاء بين الإسلام والنصرانية، عندما استقبل رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، بالمدينة المنورة سنة ١٠هـ ٦٣١م، كان احترام الإسلام لمقدسات الآخرين الدينية معلمًا من المعالم البارزة التى أرساها الإسلام، فى النظر وفى التعامل مع هؤلاء الآخرين.

ولم يكن ذلك مجرد سماحة من رسول الإسلام ﷺ ولا محض سياسة فى التعامل مع هؤلاء الآخرين، غير المسلمين.. وإنما كان ـ فوق ذلك وقبله ـ انطلاقًا من الإيمان الدينى الإسلامى، الذى لا يكتمل إلا بالاعتراف بكل الشرائع والكتب التى يتعبد بها هؤلاء الآخرون.

فالمسلمون يتلون فى قرآنهم الكريم قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفًا لهم: ﴿آمن الرَّسُولُ بمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ من رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ـ وكتابهم ـ القرآن الكريم ـ قد جاء مصدقًا لما بين يديه من وحى الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى جميع الرسل والأنبياء: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧] ـ فهذا الوحى القرآنى هو الفصل الخاتم والجامع والمفصل فى سلسلة الوحى الإلهى على مر تاريخ الرسالات والنبوات: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

وفى هذا الوحى القرآنى يصلى المسلمون ويسلمون على كل الأنبياء والمرسلين . . ويعظمون الهدى والنور الذى أنزل الله على موسى - فى التوراة - وعلى عيسى - فى الإنجيل - ويؤكدون على الانتماء إلى ملة أبى الأنبياء ، الخليل إبراهيم عليه السلام .

لهذا الإيمان الدينى الإسلامى - الذى أسس للسماحة الإسلامية - كان احترام الإسلام والمسلمين لكل مقدسات أصحاب المقدسات الدينية ، منذ اللحظة الأولى للقاء الإسلام بأهل الكتاب - من اليهود والنصارى - وطوال تاريخ الإسلام .

بل إن هذه القاعدة الإسلامية قد طبقها المسلمون مع أهل الديانات الوضعية - ومع مقدساتهم - انطلاقا من حديث رسول الله ﷺ : «**سنّوا فيهم سنة أهل الكتاب**» - رواه الإمام مالك فى الموطأ . . فاحترم المسلمون الخصوصيات الدينية ، ودور العبادة لأهل تلك الديانات ، وعاش فى عالم الإسلام وحضارته المجوس والبوذيون والصابئة والهندوس ، وكل ألوان الطيف الدينى - مع أهل الديانات السماوية - يتعبدون فى معابدهم ، التى احترمها وصانها وقدسها الإسلام والمسلمون .

ولأن رسول الله ﷺ قد جمع إلى النبوة والرسالة قيادة الدولة الإسلامية الأولى ، فلقد قنّن هذا المعلم من معالم الدين والدولة فى الإسلام ، منذ اللحظة الأولى للقاء الإسلام والنصرانية ، عندما جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة المنورة ، فى عام الوفود سنة ١٠هـ - ٦٣١م .

لقد فتح رسول الله ﷺ مسجد النبوة لنصارى نجران فصلوا فيه صلاة عيد الفصح ، الذى حان موعده وهم ضيوف على الرسول ﷺ [١] .

كما تم التقنين - تفصيليًا - لاحترام جميع المقدسات غير الإسلامية فى الوثيقة الدستورية - «العهد» - الذى كتبه رسول الله ﷺ لنصارى نجران ، ولكل المتدينين بالنصرانية . . وهو «العهد» الذى جاء فيه :

«ولنجران وحاشيتها ، ولأهل ملتها ، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها ، قريبها وبعيدها ، فصيحها وأعجمها ، جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله ، على أموالهم ، وأنفسهم ، وملتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم ، وعشيرتهم ، وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . . وأن أحرس دينهم وملتهم أين

كانوا . . بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى . . لأنى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم . . حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».

لقد أعطى الدين الإسلامى كل غير المسلمين جميع حقوق المواطنة، مثلهم فى ذلك مثل المواطنين المسلمين. مشترطًا عليهم ما هو مشروط على المسلمين: أن يكون الولاء الكامل والانتماء الخالص لدولة الإسلام - التى هى دولة الجميع - وبنص هذا «العهد» - عهد الرسول ﷺ لنصارى نجران:

«واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم فى دينهم التمسك والوفاء بما عاهدهم عليه منها: ألا يكون أحد منهم عينًا ولا رقيبًا: لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلانيته، ولا يأوى منازلهم عدو للمسلمين، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شىء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا أحدًا من أهل الحرب على المسلمين بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم . . ولا يظهروا العدو على عورات المسلمين، ولا يخلوا شيئًا من الواجب عليهم»[2].

فكل حقوق المواطنة مكفولة لغير المسلمين - كالمسلمين - وكل واجباتها كذلك، مفروضة على غير المسلمين - كالمسلمين - أن يكون الجميع لبنات فى جدار الأمن الوطنى والحضارى، لا ثغرات اختراق!

* * *

ولقد بلغ احترام الإسلام وتقديسه للخصوصيات الدينية لغير المسلمين الحد الذى تجاوز «السماح» بإقامة هذه الخصوصيات فى الدولة الإسلامية، إلى «الأمر» بإقامة هذه الخصوصيات . . ففى القرآن الكريم: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] . . ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣].

وانطلاقًا من هذا القرآن الكريم، خاطب الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة [٣٥ ق هـ - ٣٠ هـ ٥٨٦ - ٦٥٠م] «المقوقس» - عظيم القبط بمصر - عندما حمل إليه رسالة

رسول الله ﷺ سنة ٧ هـ - ٦٢٨م، فقال له: «.. **ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به»**[٣].

***

ولم تقف هذه السماحة، وهذا التقديس لخصوصيات الآخرين الدينية - عقائد.. وكنائس.. ومؤسسات دينية - عند دولة النبوة.. بل كانت سمة عامة ومرعية طوال تاريخ الإسلام. لأن الدولة الإسلامية، التي تحرس الدين، هي الدولة التي يسوسها الدين، ويعلمها القرآن الكريم أن التدافع والدفع ليس فقط لحماية المقدسات الإسلامية، وإنما لحماية دور العبادة الخاصة بكل أصحاب الشرائع الدينية: **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** [الحج: ٤٠].

فعندما فتح المسلمون القدس سنة ١٥هـ - ٦٣٥م أعطى الراشد الثاني الفاروق عمر ابن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ/ ٥٨٤ - ٦٤٤م] أهل القدس - من النصارى - «العهد العمرى» - الذى ضمن لهم:

«الأمان لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم.. لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم»[٤].

بل لقد بلغ احترام عمر بن الخطاب رضي الله عنه - يومئذ - لكنيسة القيامة، الحد الذى جعله يعتذر لبطرك القدس «صفرنيوس» [١٧ هـ - ٦٣٨م] عن عدم الصلاة - صلاة عمر - فى الكنيسة احترامًا لخصوصيتها واختصاص أهلها بها، وكى لا يأتى حاكم مسلم - فى قادم الزمان - فيتأول صلاة عمر فى الكنيسة، بأن للمسلمين حقًا فى جزء منها!!

وعندما فتح المسلمون مصر - بقيادة الصحابى الجليل عمرو بن العاص [٥٠ ق هـ - ٤٣هـ/ ٥٧٤ - ٦٦٤م] - لم يقف الفتح الإسلامى - فقط - عند تحرير الأرض من الاستعمار الرومانى - الذى امتد عشرة قرون - وتحرير الضمير الدينى من القهر الرومانى البيزنطى.. وإنما امتد هذا التحرير إلى حيث حرر المسلمون أيضًا كنائس النصرانية - المصرية - الأرثوذكسية، التى كانت مغتصبة من قبل الرومان - ومذهبهم الملكانى - حرر

المسلمون هذه الكنائس، لا ليجعلوها مساجد إسلامية، وإنما ليعيدوها إلى أقباط مصر يمارسون فيها عباداتهم النصرانية . . الأمر الذى جعل فقهاء الإسلام يقولون إن جميع كنائس مصر قد حُدِّثت وبنيت بعد الفتح الإسلامى!

ويومئذ، أعاد المسلمون البطرك القبطى «بنيامين» [٣٩هـ ـ ٦٥٩م] بعد أن ظل هاربًا من الرومان ثلاثة عشر عامًا . . فتسلم كنائسه وأديرته ـ التى حررها الإسلام ـ وأخذ يزورها فى مواكب الفرح الشعبى والسرور الوطنى . . وبعبارة الأسقف القبطى «يوحنا النقيوسى» ـ المعاصر لهذا الفتح والتحرير . . والذى وصف عودة البطرك «بنيامين» إلى كنائسه التى حررها الإسلام ـ فقال:

« . . ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية، وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون: هذا النفى، وانتصار الإسلام، كان بسبب ظلم هرقل الملك [٦١٠ ـ ٦٤١م] وبسبب اضطهاد الرومان للأرثوذكسيين . . وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر . . ولم يأخذ عمرو بن العاص شيئًا من مال الكنائس . . وحافظ عليها طوال الأيام».

وفى مهرجان الفرح هذا ـ بتحرير الإسلام لكنائس مصر، وإعادتها لأصحابها ـ أعلن البطرك بنيامين: أن الإسلام قد حقق أحلامه . . حقًا ـ:

«لقد وجدت فى الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون»(٥).

ومع تحرير الإسلام لكنائس مصر، وردها إلى أهلها . . حرر الإسلام ـ كذلك ـ أديرة الرهبان المصريين، الذين كانوا هاربين ـ قبل الفتح الإسلامى ـ من اضطهاد الرومان فى المغارات والصحارى وشعاب الجبال . . فزحف هؤلاء الرهبان للقاء عمرو ابن العاص، شاكرين له تحقيق أحلامهم . . حتى **«ليروى أنه خرج للقائه من أديرة وادى النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه . وأنه كتب لهم كتابًا ـ [بالأمان] ـ هو عندهم»**(٦).

* * *

- ٢ -

وفى التاريخ : موقفان

ولم تقف هذه السماحة الإسلامية، التى تقدس مقدسات الآخرين، عند عهد الصحابة والخلافة الراشدة وصدر الإسلام.. وإنما ظلت عقيدة إسلامية يضعها المسلمون فى الممارسة والتطبيق.. حتى لقد شهد رجل الدين القبطى «ميخائيل السريانى» - بعد قرون من الفتح الإسلامى - على استمرار هذه السماحة الإسلامية، فقال :

«لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام»[٧].

كما شهد على استمرار هذه السماحة أول مؤرخ قبطى لتاريخ البطاركة - «ساويروس بن المقفع» - فى القرن العاشر الميلادى - فقال :

«وبدأت عمارة ديارات وادى هبيب والمنى، وكانت أعمال الأرثوذكسيين تنمو، وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حُلّ رباطهم وأطلقوا على ألبان أمهاتهم»![٨]

وهكذا عاشت وتعايشت - فى ظل الدولة الإسلامية، والتاريخ الإسلامى - بل وازدهرت كل ألوان الطيف الدينى.. وكل المقدسات الدينية لكل أصحاب الديانات.. حتى لقد أفتى فقيه مصر الليث بن سعد [٩٤ - ١٧٥هـ/ ٧١٣ - ٧٩١م] **«بأن بناء الكنائس يعد من عمارة البلاد»!**[٩]

ولقد كانت القدس التى احتكرها الرومان لأنفسهم، فى عهد وثنيتهم، وفى عهد نصرانيتهم كانت طوال التاريخ الإسلامى العنوان المجسد لسماحة الإسلام مع سائر

المقدسات . . فتعايشت فيها وعاشت كل المقدسات ـ النصرانية . . واليهودية ـ حتى لتشهد «حجج» أوقاف كنائسها، التى كتبها أهلوها على ذلك، عندما جعلوا نظّار أوقاف هذه الكنائس عائلات مسلمة، ترعى هذه الأوقاف الكنسية . . بل ونصّ الكثير من «حجج» أوقاف هذه الكنائس المقدسية على أن تكون أسر مسلمة هى الحاملة «لمفاتيح» هذه الكنائس، تيسر فتح أبوابها أمام الطوائف النصرانية ـ المتخالفة فى الطقوس والاعتقادات ـ ليؤدى الجميع فيها القداديس والصلوات!

***

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام ـ العقدى . . والفقهى . . العملى ـ من مقدسات الآخرين . . فماذا كان موقف الغرب ـ الكنسى . . والسياسى ـ من مقدسات الإسلام، ومساجد المسلمين، إبان فترات الاحتكاك بين الغرب وعالم الإسلام؟ . .

إن القدس، التى جعلها الإسلام حرمًا آمنًا لكل أصحاب الديانات، ولجميع المقدسات، عندما احتلها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٩م، قد أبادوا كل من وجدوه فيها من المسلمين ـ ومن اليهود أيضًا ـ أبادوا سبعين ألفًا، فى مجزرة وحشية ورهيبة استمرت سبعة أيام! . . وهى مجزرة شارك فيها ـ مع فرسان الإقطاع الأوروبيين ـ بطاركة الكنيسة الكاثوليكية وقساوستها . . حتى لتصف المستشرقة الألمانية الدكتورة «سيجريد هونكة» تلك الإبادة، التى اعتبرها هؤلاء القساوسة أعظم ما يتقربون به إلى الله! ! . . فتقول:

«لقد كان البطريرك نفسه يعدو فى أزقة بيت المقدس، وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده فى طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ فى غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة بها، مرددًا كلمات المزمور: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقًا إن للصدّيق مكافأة، وإن فى الأرض إلهًا يقضى» ـ المزمور ٥٨ : ١٠ ـ ١١.

ثم أخذ ـ [البطريك] ـ فى أداء القداس، قائلاً: «إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى به الرب»! ![١٠]

وإذا كانوا لم يرحموا البشر، الذين استمر ذبحهم لهم «حتى كلّت أيديهم من الذبح والقتل! !» . . فإنهم لم يحترموا المقدسات . .

فمسجد عمر بن الخطاب ـ عمر، الذى سبق أن أعطى الأمان لمقدساتهم، واحترم خصوصياتها ـ قد احتمى بمسجده ـ مسجد قبة الصخرة ـ جمهور من المسلمين الهاربين من القتل والذبح والحرق . . فاقتحمه الصليبيون، وذبحوا جميع من فيه، حتى لقد تحول المسجد إلى بحيرة متموجة من الدماء، سبحت فيها خيول الصليبيين إلى لجم الخيل!! . . وبعبارة المؤرخ النصرانى ـ رجل الدين ـ «مكسيموس مونروند» ـ فى كتابه [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق، المدعوة حرب الصليب] ـ التى يصف فيها ما حدث للقدس الشريف على أيدى الصليبيين:

«إن ديوان المشورة العسكرية ـ [الصليبى] التيم ـ [اجتمع] ـ وقطع حكمًا مرهبًا، وهو: أن يُمات كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة. وهذا الحكم المهيل قد تباشر بالعمل . . ودامت هذه الملحمة مدة سبت ـ [أى سبعة أيام] ـ كاملة.

والمؤرخون يتفقون على أن الإسلام ـ [أى المسلمين] ـ الذين ذُبحوا داخل أورشليم بلغوا سبعين ألفًا. ثم إن اليهود قد كانوا داخلين فى عدد المحكوم؛ لأن ألفاظ الحكم كانت بالموت ضد غير المؤمنين، بدون تمييز المسلم من اليهودى.

على أنه باطلاً ـ [أى عبثًا] ـ كان الإسلام ـ [أى المسلمون] ـ فى أورشليم، فى اليوم المذكور، يجدّون مفتشين عن مهرب يحمون به حياتهم؛ لأن هذه المدينة خلت من ملجأ لهم. فعدد كلى منهم قد هربوا إلى جامع عمر، ظانين أنهم هناك يحمون ذواتهم من الموت، ولكن ظنهم خاب، إذ إن الصليبيين ـ خيّالة ومشاة مختلطين ـ قد دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك . . وحسب تقرير «رايموند ده أجلاس»: فقد طاف الجامع من الدماء حتى أنه تحت القناطر التى عند بابه احتقن الدم وعلا إلى حد الركب، بل إلى لجم الخيل . . وقال «روبارتوس» الراهب: إن جامع عمر قد استوعب من الدم المحتقن فيه كفى بحر متموج، وذلك مما فتكت به سيوف الجيوش الصليبية أرقاب ـ [رقاب] الإسلام ـ [المسلمين].

كانت المذابح رهيبة، جرت دماء المغلوبين فى شوارع المدينة حتى ارتفع مستوى الدم ووصل إلى ركب من سار فيها.

ولما حل المساء، اندفع الصليبيون يبكون من فرط الضحك!! ـ بعد أن أتوا على نبيذ المعاصر ـ إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفهم الغارقة فى الدماء على جدرانها، ورددوا الصلوات!!

لقد استحال منظر أورشليم، بغتة، إلى مشهد جديد؛ لأنها فى أيام قليلة، انقلبت من ديانه إلى أخرى، ومن شرايع إلى غيرها، ومن مراسيم وعوايد إلى أخرى، ومن سكان إلى غيرهم، فالغالبون أضحوا أغنيا بالغنايم التى امتلكوها بين أيديهم.. فالقايد «تنكريد» قد امتلك جميع الغنى الذى وجد فى جامع عمر، وهذه كانت عظيمة المقدار والقيمة، حتى أنه لم تكفها ست عربانات كبيرة لنقلها، وأنه قد استمر مدة يومين فى إخراجها من ذلك الجامع»!![١١].

تلك شهادة شهود العيان من النصارى.. نقله مؤرخون نصارى.. وحرصنا على تقديمها حتى بالأسلوب الركيك الذى صاغوها به.. وهى شهادة لا تحتاج إلى تعليق.. بل هى أبلغ من أى تعليق على هذا الذى صنعه الغرب الاستعمارى بمقدسات الإسلام.. وبالمسلمين.. فى المدينة التى جعلها المسلمون حرمًا آمنا لكل المقدسات.. والتى أطلقوا عليها اسم «القدس» و«بيت المقدس» و«الحرم القدسى الشريف»، تجسيدًا للقداسة التى صارت عنوانًا عليها فى حضارة الإسلام.

ولم يكتف الصليبيون بهذا الذى صنعوا.. وإنما قاموا باحتكار القدس لهم، دون كل أصحاب الديانات والمقدسات.. فحولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة لاتينية.. وجعلوا جزءًا منه اصطبلاً للخيول!!

***

بل إن الاستهانة والإهانة والتدنيس والتدمير، التى ألحقها الصليبيون بالمقدسات، لم تقف عند المقدسات الإسلامية - واليهودية - بمدينة القدس.. وإنما عمت مقدسات الكنيسة الشرقية - فى القسطنطينية -!!.. فعندما احتلوها - وهم فى طريقهم إلى الشرق - سنة ١٢٠٣م: **«أخذوا يعيثون بها فسادًا كأنهم جراد منتشر ملتهم.. فانقضوا على المدينة الغنيمة فى أسبوع عيد الفصح، وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده روما نفسها على أيدى الوندال أو القوط.. ووزع الأشراف اللاتين قصور المدينة فيما بينهم، واستولوا على ما وجدوه فيها من الكنوز، واقتحم الجنود البيوت، والكنائس والحوانيت، واستولوا على كل ما راقهم مما فيها، ولم يكتفوا بتجريد الكنائس، مما تجمع فيها خلال ألف عام من الذهب والفضة والجواهر، بل جردوها -**

فوق ذلك ـ من المخلفات المقدسة، ثم بيعت هذه المخلفات بعدئذ بأوروبا الغربية بأثمان عالية.

وعانت كنيسة أيا صوفيا من النهب ما لم تعانه فيما بعد على يد الأتراك سنة ١٤٥٣م، فقد قُطِّع مذبحها العظيم تقطيعًا لتوزع فضته وذهبه.. وامتدت أيديهم إلى التماثيل، والأقمشة، والجواهر، ونقلت الجياد البرونزية الأربعة التى كانت تطل على المدينة اليونانية ـ وجُمِّل بها ميدان القديس مرقس، بروما.. وكانت هذه السرقات المنظمة مصدر تسعة أعشار مجموعات الفنون والجواهر التى امتازت بها كنوز كنيسة القديس مرقس عن سائر الكنائس.

وبُذلت محاولة ضئيلة للحد من اغتصاب النساء، وقنع الكثيرون من الجنود بالعاهرات، ولكن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار، ولا الذكور ولا الإناث، ولا أهل الدنيا أو الدين، فقد أرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين!

وبُدِّدت فى أثناء هذا السلب والنهب محتويات دور الكتب، وأتلفت المخطوطات الثمينة، أو فُقدت، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين فى المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف كما التهمت الكنائس والمنازل.

واستُبدل برجال الدين اليونان غيرهم من اللاتين، ورُسِّم كثير منهم قساوسة دون أن يكون لهم تاريخ سابق فى شئون الدين!

وعاد معظم الصليبيين إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم التى نهبوها»!![١٢]

هكذا صنع الصليبيون بعاصمة الكنيسة الشرقية وكنائسها وكنوزها وأهل الدين والدنيا فيها ـ على حد وصف مؤرخ الحضارة «ول ديورانت» ـ لمجرد الاختلاف فى المذهب.. وليس فى الدين!!

* * *

ـ ٣ ـ

وفى العصر الحديث

ولم تقف هذه الجرائم الوحشية التى ارتكبها الغرب الاستعمارى فى حق المقدسات الدينية عند عصوره الوسطى والمظلمة . . بل لازمت غزوات هذا الغرب الاستعمارى حتى فى عصره الحديث ـ عصر النهضة ـ والاستنارة والتنوير :

فنابوليون بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] إبان غزوته لمصر [١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م] اقتحمت جيوشه الجامع الأزهر الشريف . . وهو واحد من أعرق المساجد والجامعات فى العالم الإسلامى . . والذى أطلق عليه المسلمون ـ عبر تاريخهم ـ وصف «الشريف» . . مع الحرم المكى الشريف . . والحرم المدنى الشريف . . والحرم القدسى الشريف ـ فعاثت جيوش الغزوة الفرنسية فى حرم هذا الأزهر فساداً ، حتى لقد ارتكبوا فيه جرائم القتل والنهب والسرقة وتمزيق المصاحف الشريفة وكتب الحديث النبوى الشريف . . بل لقد بالوا وتغوّطوا وسكروا فيه!

ولقد تحدث مؤرخ ذلك العصر عبد الرحمن الجبرتى [١١٦٧ ـ ١٢٣٧ هـ/ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢م] عن هذه الجريمة ـ فقال :

«لقد دخل أولئك الوعول [التيوس!!] ـ إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول . . وداس فيه المشاة بالنعالات وهم يحلمون السلاح والبندقيات ، وتفرقوا فى صحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا فى الأروقة والحجرات ، وكسروا القناديل السهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا

بالمسجد وتمخطوا، وبالوا وتغوّطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانية، وألقوها بصحنه ونواحيه.

وكل من صادفوه به عرّوه، ومن ثيابه أخرجوه، ووجدوا فى بعض الأروقة إنسانًا فذبحوه، ومن الحياة أعدموه، وفعلوا بالجامع الأزهر، ما ليس عليهم بمستنكر؛ لأنهم أعداء الدين، وأخصام متغلبون، وغرماء متشمتون، وضباع متكالبون، وأجناس متباينون، وأشكال متعاندون. وأعطى تلك الليلة جيش الرحمن، فسحة لجيش الشيطان»!![13].

هكذا صنع جيش الحملة الفرنسية - الذى كان يرفع أعلام الثورة الفرنسية.. وشعارات الحرية والإخاء والمساواة - ببيت من بيوت الله.. وجامعة هى أعرق جامعات الإسلام..

وصدق الجبرتى عندما وصفه بأنه «جيش الشيطان» الذى حل محل «جيش الرحمن»!!

وإذا كانت ثورات الشعب المصرى ضد هذه البربرية - التى أبادت سُبْعَ تعداد الشعب المصرى يومئذ!! - قد جعلت بونابرت - الذى دوخ أوروبا - يهرب من مصر بليل.. فلم يتجاوز عمر احتلال جيشه لمصر العامين إلا قليلاً.. فإن الاستعمار الفرنسى للجزائر - والذى دام قرنًا وثلث القرن - من سنة ١٨٣٠م حتى سنة ١٩٦٢م - قد حول الكثير من مساجدها إلى كنائس.. وعلب ليل.. وخمارات!!.

ولقد ظل هذا العار الأوروبى قائمًا طوال تلك العقود.. حتى استطاع الشعب الجزائرى أن يحرر أرضه الطاهرة، ويعيد مساجده إلى رحاب الله، بعد أن غسلها الشعب بالماء والعطور والمطهرات والدموع!.. فارتفع الأذان من مآذنها مرة ثانية.. بعد أن خاب إعلان الكرادلة الفرنسيين الكاثوليك - سنة ١٩٣٠م: «لقد ولّى - فى الجزائر - عهد الهلال.. وأقبل عهد الصليب»!!

***

وتتكرر جريمة الغرب الاستعمارى مع الأزهر الشريف - مرة أخرى - على أيدى المستعمرين الإنجليز، إبان ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩م.. فيحاولون إغلاقه فى

٢ إبريل سنة ١٩١٩م . . ولكن شيخه الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى [١٢٦٣ ـ ١٣٤٦هـ/ ١٨٤٧ ـ ١٩٢٧م] يرفض ذلك[١٤] . . لكنهم يعودون فيقتحمونه ويدنّسونه فى ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩م.

ويتحدث مؤرخ الوطنية المصرية عبد الرحمن الرافعى [١٣٠٦ ـ ١٣٨٦هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٦م] عن هذه الجريمة فى حق المقدسات الإسلامية، فيقول:

«لقد وقع فى يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩١٩م ـ ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ ـ حادث اهتزت له أرجاء القاهرة، وأثار عاصفة من السخط والاستنكار فى أنحاء البلاد، وهو اقتحام الجنود الإنجليزية الجامع الأزهر. لقد دخلوه بنعالهم وأسلحتهم ـ مطاردين للمتظاهرين ـ واعتدوا على من صادفوهم بالضرب والإيذاء، فحدث هرج ومرج فى الجامع، واقتحم الجنود مكاتب الإدارة، وحاولوا كسر الأبواب، ففزع الموظفون، وحدثت ضجة كبيرة داخل الجامع وخارجه».

ولقد احتج على هذه الفعلة الشنيعة ـ فعلة «اقتحام الجنود الإنجليز بنعالهم وعصيهم هذا المعهد الإسلامى المقدس والجامعة الإسلامية الكبرى، التى يؤمها طلاب العلوم من جميع الأقطار» ـ احتجوا على هذه البربرية التى تنتهك حرمات المقدسات».

ووقّع على هذا الاحتجاج أكثر من مائة من كبار علماء الأزهر الشريف . .[١٥]

***

ولا تنتهى فصول هذه الإهانات والاستهانات بمقدسات الإسلام والمسلمين، من قبل المستعمرين الغربيين . . ففى أحدث فصولها، وإبان الهجمة البربرية الأمريكية على مدينة «الفالوجة» العراقية ـ فى أكتوبر ـ نوفمبر سنة ٢٠٠٤م ـ وهى مدينة صغيرة، لا يتجاوز عدد سكانها الثلاثمائة ألف نسمة، ولا تزيد مساحتها على أربعة كيلومترات فى الطول والعرض ـ أى أنها قرية كبيرة . . إبان الهجوم على «الفالوجة» دمر الجيش الأمريكى أغلب مساجدها، مرتكبًا فيها جرائم الحرب والعداء للإنسانية ـ من مثل قتل الأسرى . . والإجهاز على الجرحى . . وقتل العزّل من النساء والشيوخ والأطفال، الذين احتموا بهذه المساجد من دمار الأسلحة الفتّاكة والمحرّمة دوليًا!!

ومن هذه المساجد التى تمّ تدميرها ـ كليًا أو جزئيًا ـ والتى حوّل الأمريكان بعضها إلى ثكنات عسكرية يعيث فيها الجنود فسادًا!! ـ والتى سوّوا بعضها بالتراب: «جامع أبو أيوب ـ وجامع الشيخ زامل ـ ومسجد الفردوس ـ ومسجد البراءة والهداية ـ ومسجد الحاج نزال ـ وجامع الخلفاء ـ وجامع المدلل ـ ومسجد الحسن والحسين ـ وجامع معاوية ـ وجامع حسين شلش ـ ومسجد أبو عبيدة ـ ومسجد الراوى ـ ومسجد الضاحى»(١٦).

لقد دمروا أغلب مساجد الفالوجة ـ أربعين مسجدًا من سبعين! ـ وذلك فى أحدث فصول الإهانات والانتهاكات الغربية لمقدسات الإسلام والمسلمين.

ومن قبل مساجد الفالوجة.. كان الاقتحام والتدنيس لمرقد الإمام علىّ بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ بمدينة النجف.. والعدوان على مسجد الإمام أبى حنيفة النعمان [٨٠ ـ ١٥٠هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م] ـ ببغداد ـ وغيرها من المقدسات الكبرى والشهيرة والتاريخية فى العراق.

فهل يكون هذا الفصل ـ فصل الخزى والعار الأمريكى بالعراق ـ هو خاتمة هذه الفصول، التى توالت على مر تاريخ الاستعمار الغربى للشرق الإسلامى؟!

يبدو أن فصل الخزى والعار ـ الأمريكى والغربى فى الفالوجة ـ إزاء المقدسات الإسلامية، ليس آخر هذه الفصول.. فلقد نشرت النيوزويك الأمريكية ـ فى ٩ مايو سنة ٢٠٠٥م ـ أنباء وضع المحققين الأمريكيين ـ فى معتقل «جوانتانامو» ـ نسخ المصحف الشريف فى المراحيض!!.. كجزء من التعذيب للمعتقلين المسلمين هناك!!.. «فتفوقوا» على فعلة جنود بونابرت فى الأزهر الشريف!!

ومع ذلك ظل الضمير الغربى صامتًا ـ إن لم نقل ميتًا ـ إزاء الانتهاكات لحرمات المقدسات، ما دامت أن هذه المقدسات خاصة بالإسلام والمسلمين؟!

***

أما فصول الدنس الذى ألحقته ـ وتلحقه ـ الصهيونية بالمقدسات الإسلامية على أرض فلسطين.. فإنها بحاجة، إلى حديث خاص، يجلى هذه الصفحة من صفحات الخزى والعار التى تتسابق فيها الصهيونية اليهودية مع الصليبية الغربية فى هذا المضمار!؟

ـ ٤ ـ

وفى معاملة الأسرى.. واحترام العهود

على الرغم مما قننته «اتفاقات چنيف» سنة ١٩٤٩م من قواعد تحكم معاملة أسرى الحروب . . والمدنيين الذين يتحولون إلى ما يشبه الأسرى، فى ظل الاحتلال العسكرى لبلادهم . . إلا أن هذه القضية قد أثيرت بحدة فى السنوات الأخيرة، وذلك بسبب المعاملات غير الإنسانية واللاأخلاقية والوحشية التى شاعت فى معاملة الأسرى على ساحات كثيرة من ساحات الصراعات المعاصرة.

فالشعب الفلسطينى، قد أصبح أسيرًا لآلة الحرب الصهيونية، وللممارسات العنصرية اليهودية، محرومًا من أدنى حقوق الأسرى! . . فحتى جرحى هذا الشعب المجاهد يتركون لتنزف دماؤهم فيموتون صبرًا . . وتمنع سيارات الإسعاف من إنقاذ حياتهم . . بل وتُضرب سيارات الإسعاف بالصواريخ الصهيونية، على نحو لا سابقة له حتى فى حروب النازيين والفاشيين . . وربما التتار أيضًا! . . ويتم ذلك، فى حماية الهيمنة الغربية والأمريكية، التى صاغت دولها اتفاقات چنيف سنة ١٩٤٩م!!

أما أسرى السجون الصهيونية ـ من آلاف الفلسطينيين ـ فلقد تجاوز الأمر معهم حد الحرمان من الحقوق، ووصل إلى التعذيب «الفنى ـ المنظم»، الذى قننته «العدالة الصهيونية»!

وأسرى الشعب الأفغانى، الذين سقطوا بيد الأمريكان وحلفائهم سنة ٢٠٠٢م . قد صُبَّ عليهم الزيت فى «قلعة جانج» . . بشَمال أفغانستان ـ وحُرقوا حرقًا!! . . ومن أفلتوا من الحرق شحنوا فى «حاويات» شحن البضائع، فماتوا خنقًا!!

ومنذ ذلك التاريخ، والعالم يشهد ـ بالصور الملونة ـ قصص التعذيب «المنظم ـ والعلمى!» للأسرى الذين وقعوا بيد الأمريكان، من «جوانتانامو» إلى «كابول»!

ثم جاء المشهد العراقى الدامى، الذى أقامه العدوان الأمريكى للأسرى العراقيين ـ نساء ورجالاً، شيبًا وشبانًا . . علماء وعامة ـ منذ عدوان سنة ٢٠٠٣م على العراق . . وهو المشهد الدامى فى إذلاله، والمذل فى دمويته ولا إنسانيته . . والذى افتضحت قطرات من محيطه فى سجن واحد من سجونه، وهو سجن «أبو غريب»، بالقرب من بغداد . . حيث شهد العالم ـ بالصورة الملونة ـ الاستباحة الأمريكية لكل المقومات التى مثلت جماع إنسانية الإنسان وفى مقدمتها مقومات احترام النفس . . والعرض . . والدين ! ـ التى هى كل ما بقى للأسير والسجين ! !

ثم جاءت حوادث فردية أسرت فيها جماعات عراقية مجهولة أفرادًا يعملون فى خدمة المجهود الحربى لقوات الاحتلال الأمريكى فى العراق . . حيث قتلت هذه الجماعات أفرادًا من هؤلاء «الأسرى» أو المخطوفين، عندما لم تستجب دولهم أو الشركات التى يعملون بها لمطلب مقاطعة جيوش الاحتلال . . الأمر الذى أثار الكثير من التساؤلات الملحة حول الموقف الإسلامى من معاملة الأسرى . . وذلك على النحو الذى يرشح صفحات التاريخ الإسلامى فى معاملة الأسرى، وكذلك صفحات التاريخ الغربى إزاء هذا الموضوع ـ معاملة الأسرى ـ لتكون موضوعًا للدراسات التى تستدعى هذا التاريخ ليجيب عن علامات الاستفهام التى قامت فى واقعنا الراهن حول هذا الموضوع ـ «القديم ـ الجديد» .

* * *

وبادئ ذى بدء فإن القرآن الكريم قد جعل المعاملة الحسنة للأسرى، وإيثارهم بالطعام ـ المحبوب والمطلوب ـ على النفس، صفة من صفات المؤمنين الأبرار، الذين وعدهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بجنات النعيم المقيم، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۞ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۞ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۞ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان : ٥ ـ ١٢] .

ولقد جاءت هذه الآيات في سورة «الإنسان»، الذي جاهد غرائز الانتقام من الأسرى - الذين قتلوا إخوانه وذويه - فتسامى فوق غرائز الانتقام هذه، في لحظات القوة والقدرة، وعامل الأسرى الذين تجردوا من كل قوة، بهذا المستوى من مستويات الإنسانية والإيثار.

ولقد ذكر «الماوردي» [٣٦٤ - ٤٥٠هـ/ ٩٧٤ - ١٠٥٨م] أن هذه الآيات قد نزلت في الذين عهد إليهم رسول الله ﷺ برعاية الأسرى الذين أسروا في غزوة بدر [٢هـ ٦٢٤م] - وكانوا من صناديد الشرك.. وفي قراءة أسماء هؤلاء السبعة الذين عهد إليهم الرسول القائد بهذه المهمة دلالة لا يخطئها العقل.. فهم سبعة من العشرة الذين تكونت منهم أولى الهيئات الدستورية في الدولة الإسلامية - هيئة المهاجرين الأولين: أبو بكر الصدّيق [٥١ ق. هـ - ١٣هـ/ ٥٧٣ - ٦٣٤م]، وعمر بن الخطاب [٤٠ ق. هـ - ٢٣هـ/ ٥٨٤ - ٦٤٤م]، وعلي بن أبي طالب [٢٣ق. هـ - ٤٠هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١م]، والزبير بن العوام [٢٨ ق. هـ - ٣٦هـ ٥٩٦ - ٦٥٦م]، وعبد الرحمن بن عوف [٤٤ق. هـ - ٣٢ هـ/ ٥٨٠ - ٦٥٢م]، وسعد بن أبي وقاص [٢٣ ق. هـ - ٥٥هـ/ ٦٠٠ - ٦٧٥م]، وأبو عبيدة بن الجراح [٤٠ق. هـ ١٨هـ/ ٥٨٤ - ٦٣٩م].

تلك هي مكانة هذه الأمانة - الأسرى - وتلك هي مكانة الأمناء على هذه الأمانة، في أول تطبيق إسلامي للبلاغ القرآني - الذي جاءت به سورة الإنسان - في هذا الميدان.

أما المصير الذي حدده القرآن الكريم للأسرى، فلقد عينته آيات سورة «القتال - محمد»، وهو: إما المن بالتحرير والحرية دونما مقابل، وإما الفداء ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٤ - ٦].

فهذه المعاملة للأسرى - المن أو الفداء - هي «جهاد أكبر»، يدخل المؤمنون ميدانه بعد أن فرغوا من القتال - «الجهاد الأصغر» - وذلك عندما لا ينتقمون - بالقتل - من الأسرى - الذين قتلوا من المؤمنين في المعركة.. فالحفاظ على حياتهم، والمن

عليهم بالحرية دون مقابل أو بالفداء ـ هو جهاد وابتلاء وامتحان من الله لعزائم المؤمنين، ولو شاء ـ سبحانه ـ لانتصر وانتقم هو من هؤلاء الأسرى ـ الذين قتلوا المؤمنين ـ فليس للمنتصرين أن ينتقموا من الأسرى، وفاء وقصاصًا لشهداء المسلمين الذين قتلوا بأيديهم، فلهؤلاء الشهداء عند الله من النعيم ما يذهب أية نوازع للانتقام من صدور إخوانهم المنتصرين . . لهم الجزاء الأوفى، والهدى، وصلاح البال، والنعيم المقيم فى الجنات ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦] ـ فلا داعى للانتقام لهم من الأسرى . . وإنما هو المن أو الفداء!

ولقد كانت السنة النبوية الشريفة هى البيان الرسالى والتطبيق الأمين لهذا البلاغ القرآنى . . وإذا كان الرسول ﷺ قد قتل واحدًا أو اثنين من أسرى بدر ـ كما تقول روايات التاريخ ـ فإنهما لم يقتلا بحكم الأسر ـ وإلا لطبق ذلك على كل الأسرى ـ وإنما قتل من قتل قصاصًا من جرائم قد ارتكباها، وكانا مطلوبين للقصاص فيها حتى قبل القتال والأسر . . فلا مجال للغط الجاهلين والمفترين بأن رسول الله ﷺ قد قتل أسرى يوم بدر .

أما المقتولون من بنى قريظة ـ عقب غزوة الأحزاب [٥هـ ـ ٦٢٧ م] فلم يُقتلوا كأسرى، وإنما قُتلوا جزاء خيانتهم، ووفق حكم التحكيم الذى اختاروه هم واختاروا حكامه . . فلم يكونوا أسرى معركة قتالية، وإنما كانوا خونة للعهود والمواثيق ساعة الشدة والعسرة يوم غزوة الأحزاب، عندما انحازوا إلى الأعداء .

هذا هو الموقف الإسلامى من الأسرى . . كما حددته الآيات المحكمة فى القرآن الكريم . . وكما وضعه رسول الله ﷺ فى الممارسة والتطبيق .

ولقد مضى هذا الموقف الإسلامى سنة متبعة على امتداد تاريخ الإسلام . . فلم يسلك المسلمون سبيل الانتقام من الأسرى، حتى عندما سلك الغزاة الغربيون سبيل القتل لأسرى المسلمين، طوال ذلك التاريخ!

❊ ❊ ❊

فالصليبيون الذين غزوا القدس [٤٩٢هـ ـ ١٠٩٩ م] قد ذبحوا وأحرقوا كل من وقع

فى أيديهم من المسلمين، حتى الشيوخ والنساء والأطفال ـ ذبحوا سبعين ألفًا ـ حتى الذين احتموا بمسجد قبة الصخرة ـ مسجد عمر بن الخطاب ـ ذُبحوا، وسبحت خيول الصليبيين فى دمائهم إلى لجم الخيل ـ كما نقل ذلك عن شهود العيان رجل الدين النصرانى صاحب كتاب [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق]!!

ولم يقترف جرم قتل الأسرى والمدنيين غير المحاربين فرسان الإقطاع الصليبيين وحدهم.. بل لقد كان رجال الدين النصارى ـ نعم رجال الدين! ـ فى مقدمة الذين اجترحوا هذه الفظائع والسيئات.. ولقد وصف المؤرخ الأوروبى "ميشائيل درسيرر" صنيع **«البطريرك نفسه فى هذه المذبحة... عندما كان يعدو فى أزقة بيت المقدس، وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده فى طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ فى غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة بها، مرددًا كلمات المزمور:**

«يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقًا إن للصدّيق مكافأة وإن فى الأرض إلهًا يقضى» ـ المزمور ٥٨: ١٠ ـ ١١.

ثم أخذ فى أداء القداس، قائلا: «إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى به الرب»(١٧)!

هنا يمكنُ للدراسات التاريخية أن تقدم الحقائق التى تعرض لونين من «الأبرار».. أبرار يؤثرونِ على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فيطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا.. ويجاهدون نوازع الثأر وغرائز الانتقام من الأسرى الذين قتلوا إخوانهم، مرجحين ومختارين الطاعة لله، الذى لو شاء لانتصر وانتقم منهم، والذى جعل للشهداء نعيمًا يداوى التذكير به نوازع الثأر ويذهب بغرائز الانتقام.

وفى المقابل ـ الغربى ـ هناك «أبرار» يفرحون عندما يغتسلون بدماء الأسرى.. زاعمين أن هذا هو القضاء الإلهى، مكافأة للصديقين... والقربان الأعظم الذى يتقربون به إلى الله!!

فالرب هنا هو رب الجنود، المتعطش للدماء.. الذى جعل ـ بزعمهم ـ سفك دماء الأسرى أعظم القربات الجالبة لرضاه!

وفى مقابل هذه الصفحة ـ الغربية ـ من صفحات التعامل مع الأسرى، يمكن للدراسات التاريخية أن تعرض صنيع صلاح الدين الأيوبى [٥٦٤ ـ ٥٨٩هـ/ ١١٦٩ ـ ١١٩٣م] مع الأسرى، إبان حروب التحرير للمدن والبقاع التى صنع الصليبيون هذا الذى صنعوه مع أسراها المسلمين.. وهى صفحة مليئة بالوقائع المضيئة، والقصص الإنسانية، والأخلاقيات السامية للفروسية الإسلامية، التى شهد بها الغربيون قبل المسلمين!

وصفحة أخرى من صفحات تاريخ التعامل مع الأسرى.. سطرتها وقائع الغزوة الصليبية لميناء «دمياط» ـ بشمالى مصر ـ. فعندما دخل الصليبيون مدينة دمياط [فى ذى القعدة سنة ٦١٥هـ ـ يناير ١٢١٩م] ـ ماذا صنعوا بالأسرى والمستضعفين من المدنيين غير المحاربين؟

تقول الشهادات الغربية: «**إنهم أبادوا جميع من بها، بناء على أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجال الكنيسة**»!

[وفى مقابل هذا الموقف.. ماذا كان صنيع المسلمين، بقيادة السلطان الأيوبى «الملك الكامل» [٥٧٦ ـ ٦٣٥هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٣٨م] فى معركة تحرير «دمياط» [٦١٨هـ ـ ١٢٢١م]؟.. أى ماذا صنع المسلمون مع الأسرى الصليبيين، الذين سبق أن أبادوا جميع الأسرى المسلمين؟..

مرة أخرى، تشهد المصادر الغربية على «**أن الملك الكامل عندما انتصر على هذه الحملة الصليبية، أكرم أسراهم ولم يقتص منهم: العين بالعين والسن بالسن، وإنما أطعمهم فى مسغبة أربعة أيام طوال، مرسلاً إلى جيشهم المتضوّر جوعًا كل يوم ثلاثين ألف رغيف، ومواد غذائية أخرى.**

ولقد شهد بهذا الإكرام أحد هؤلاء الأسرى ـ عالم الفلسفة اللاهوتية القسيس «أوليفروس» ـ من كولونيا.. على نهر الراين، بألمانيا ـ فكتب رسالة إلى الملك الكامل، قال فيها:

«منذ تقادم العهود، لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود، خاصة مع أسرى العدو اللدود. ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك مستبدًا طاغية، ولا سيدًا داهية، وإنما عرفناك أبًا رحيمًا، شملنا بالإحسان والطيبات، وعونًا منقذًا فى كل النوائب والملمات. ومن ذا الذى يمكن أن يشك لحظة فى أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله؟

إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأذقناهم مر العذاب، لما غدونا أسراهم، وكدنا نموت جوعًا، راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بهم من خصاصة، وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا نحن تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان»(١٨).

لقد كتب القسيس والفيلسوف اللاهوتي الألماني «أوليفروس» هذا الذي كتبه، ليس كمجرد شاهد عيان، وإنما عن تجربة شارك بها في قتل المسلمين الأسرى، ثم إذا هو - عندما وقع أسيرًا مع جيشه الصليبي يجد المسلمين الذين قُتل أهلهم أسرى - يؤثرونه وزملاءه على أنفسهم - مع الخصاصة - كتب هذا الرجل ذلك، دون أن يدري أن هؤلاء المسلمين إنما كانوا يقيمون الدين الإسلامي، ويجسدون الوحي القرآني الذي نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين - عليه الصلاة والسلام - في معاملة الأسرى - فهو دين.. وهي سماحة الإسلام.. وليست مجرد أريحية لحاكم من الحكام، أو شعب من الشعوب.. ولعل عبارة هذا «القسيس - الأسير» قد أشارت إلى هذه الحقيقة عندما قال - عن هذه المعاملة الإسلامية للأسرى - «ومن الذي يشك لحظة أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله؟!».

***

وإذا كان الغرب، الذي أدهشته السماحة الإسلامية عند صلاح الدين الأيوبي، والملك الكامل، قد حاول بعض كتابه أن يقدموا الملك الإنجليزي الصليبي «ريتشارد قلب الأسد» [١١٨٩ - ١١٩٩م] في صورة تشبه صورة صلاح الدين، فإن قضية معاملة الأسرى - بشهادة الغربيين أنفسهم - قد فضحت هذه المحالات.. وكما تقول المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكة»:

«ففي حين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس [٥٨٣هـ - ١١٨٧م] التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل [٤٩٢هـ - ١٠٩٩م] بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها مذبحة وحشية وقسوة، فإن صلاح الدين لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقامًا لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضاربًا المثل في التخلق بروح الفروسية العالية».

ثم تمضى هذه الشهادة الغربية، لتقارن ذلك بما صنعه الملك «ريتشارد قلب الأسد» من الإبادة لأسرى المسلمين، بعد أن قطع لهم عهد الأمان!! . . فتقول:

«وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أى التزام خلقى تجاه كلمة الشرف أو الأسرى. . فالملك ريتشارد قلب الأسد، الذى أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربى أن حياتهم آمنة، إذا هو فجأة متقلب المزاج، فيأمر بذبحهم جميعًا»[19].

❊❊❊

وتستمر صفحات تاريخ هذا الصراع فى تقديم الوقائع والمواقف والدروس والعبر والعظات للدراما التاريخية ـ فى هذا الميدان: التعامل مع الأسرى بين الشرق الإسلامى والغرب الاستعمارى ـ فنجد موقف الحملة الفرنسية. التى قادها «بونابرت» [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] والتى جاءت إلى بلادنا رافعة أعلام الثورة الفرنسية، وشعارات «الحرية» و«الإخاء» و«المساواة»، و«فلسفة الأنوار». . نجد موقفها من الأسرى متجسدًا فى صنيع بونابرت [١٢١٤هـ ـ ١٧٩٩م] مع أهل مدينة «يافا» ـ فى فلسطين ـ ومع آلاف الجنود الذين وقعوا فى الأسر، والذين استسلموا بعد أخذهم الأمان على حياتهم.

إن الدراسة التاريخية مدعوة لاستدعاء هذه الصفحة من صفحات التعامل الفرنسى مع الأسرى المسلمين، والتى صنعها «بونابرت» سنة ١٧٩٩م ـ أى فى الذكرى السبعمائة لصنيع الصليبيين الأول بمدينة القدس وأسراها!

ولقد سجل المؤرخون الفرنسيون هذه الصفحة، ونقلها عنهم المؤرخ الوطنى عبد الرحمن الرافعى [١٣٠٦ ـ ١٣٨٦هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٣م] فقال:

«لقد وصل نابوليون بجيشه تجاه يافا يوم ٣ مارس سنة ١٧٩٩م، وكان الجيش العثمانى، بقيادة عبد الله باشا الجزار [١١٣٢ ـ ١٢١٩ هـ/ ١٧٢٠ ـ ١٨٠٤م] ممتنعًا بها، فحاصرها نابوليون بجنوده، واستولى عليها يوم ٧ مارس، بعد معركة شديدة قتل فيها من الجنود العثمانية نحو ٢٠٠٠ قتيل، ودخل الفرنسيون المدينة، وأعملوا فيها السيف والنار.

لقد نهب الجنود الفرنسية يافا، وارتكبوا فيها من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان ـ

باعتراف المؤرخين الفرنسيين - واستمر النهب والقتل يومين متواليين، واضطر الچنرال «روبان - Robin» - الذى عينه ناپوليون قائداً للمدينة - أن يقتل بعض الجنود لإعادة النظام، فذهب جهده عبثًا. ولم ينقطع النهب إلا بعد أن كلَّ الجنود من الاعتداء وسفك الدماء.

ويقول بعض المؤرخين: إن الدماء التى سُفكت فى يافا، وأشلاء الجثث التى تُركت بها عدة أيام، كانت من أسباب انتشار الوباء بين العسكر، وهو الوباء الذى كان من العوامل الرئيسية لإخفاق الحملة الفرنسية على سورية»[٢٠].

فنفس الذى حدث بالقدس - سنة ١٠٩٩م - حدث فى يافا - سنة ١٧٩٩م - عندما استمرت المجزرة والإبادة للأبرياء والأسرى حتى «كَلَّت أيدى القتلة» من القتل والذبح وسفك الدماء!.. وهذا التعبير: «كلت الأيدى من القتل» نجده - بالحرف - فى وصف مجزرة القدس سنة ١٠٩٩م بكتاب [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب] - المجلد الأول ص ١٧٤ - كما نجده - بالحرف - فى وصف المذبحة الفرنسية فى يافا سنة ١٧٩٩م!!

كما نجد ما صنعه الملك الإنجليزى «ريتشارد قلب الأسد» مع آلاف الأسرى المسلمين، الذين ذبحهم بعد أن أعطى لهم الأمان!.. يعيد صنعه القائد الفرنسى بونابرت عقب استيلائه على يافا سنة ١٧٩٩م، مع ثلاثة آلاف من أسرى الجيش العثمانى، الذين أمَّنهم على حياتهم، ثم غدر بهم وذبحهم، فى مجزرة وصفها المؤرخون الفرنسيون، ونقل وصفها عنهم المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، فقال:

«ولم يكد ينقطع النهب لمدينة يافا، حتى أعقبته مأساة أخرى أشد هولاً وفظاعة، وذلك أنه بعد انتهاء المعركة ودخول الفرنسيين المدينة، كان بها من الجنود العثمانية نحو ثلاثة آلاف مقاتل، آثروا التسليم وإلقاء السلاح فى يد الفرنسيين بشروط اتفقوا عليها مع اثنين من ياوران ناپوليون، وهما «بوهارنيه - Beauharnais» و«كروازييه - Croisier». ومن هذه الشروط: أن تضمن لهم أرواحهم بعد التسليم، وتعهد الياوران بذلك باسم القائد العام - [بونابرت] - وتلقاهم الفرنسيون كأسرى حرب، ولكن ناپوليون، بعد أن فكر طويلاً فى أسرهم، وتردد فى شأنهم، أمر بإعدامهم

جميعًا رميًا بالرصاص . وحجته فى ذلك أنه كان عاجزا عن إطعامهم وحراستهم فى بلاد نائية لم يستتب له فيها الأمر!! . . فسيق أولئك الأسرى إلى شاطئ البحر وأعدموا جميعًا رميًا بالرصاص»!!

ولقد نقل الرافعى عن المؤرخ «ريبو» ـ صاحب كتاب [التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية] ـ تأثير هذه المجزرة وعواقبها، الذى قال فيه : **«إن ثلاثة آلاف من الأعداء قُتلوا مرة واحدة. ولكن الجنود الباقين قد زاد عددهم، وتضاعفت جهودهم للأخذ بالثأر، ورأوا فى مصير إخوانهم الذين ذبحهم الفرنسيون نموذجًا للإنسانية الفرنسية، فأصبح القتال بينهم وبين الجيش الفرنسى صراعًا إلى الموت. وحصد نابوليون تحت أسوار عكا ما غرسه على شاطئ يافا»**(٢١) .

* * *

تلك نماذج شاهدة ـ وهى مجرد نماذج ـ لصفحات من التاريخ، مليئة بالوقائع والدروس والعبر والعظات والدلالات والإيحاءات :

١ ـ صفحة التحالفات غير المقدسة ضد الإسلام والمسلمين . . التى نواجهها اليوم . . كما واجهها أسلافنا منذ فجر تاريخ الإسلام . . وعبر هذا التاريخ .

٢ ـ وصفحة الكيانات الاستيطانية الاستعمارية المغروسة قسرًا فى قلب وطن الأمة . . تلك التى نواجهها اليوم على أرض فلسطين . . والتى واجهها أسلافنا ـ على ذات الأرض ـ فى تاريخنا الإسلامى الوسيط .

٣ ـ وصفحة الغواية الاستعمارية للأقليات فى بلاد الإسلام . . تلك التى نواجهها اليوم . . والتى واجهناها منذ الحروب الصليبية، وحتى الغزوة الاستعمارية الحديثة لبلادنا .

٤ ـ وصفحة الموقف من المقدسات الدينية . . وكيف تعامل معها الإسلام . . وكيف دنسها الغربيون، على امتداد تاريخ صراعهم ضد الإسلام والمسلمين .

٥ ـ وصفحة التعامل مع الأسرى . . وكيف تعامل معها الإسلام وأمته وحضارته . . وكيف وقف منها الغرب ـ موقف الغدر والخيانة والإبادة ـ على امتداد تاريخ صراعه مع الإسلام؟

وإذا كانت هذه الصفحات ـ من التاريخ ـ هى مجرد نماذج وإشارات . . فإن هناك صفحات :

* التاريخ الإسلامى فى الانفتاح على الحضارات غير الإسلامية . . وسير وجهود العلماء الذين أبدعوا فى مختلف ميادين العلم المدنى منذ فجر ظهور الإسلام . .

* والتاريخ الإسلامى فى ميادين التربية وتهذيب القلوب .

* والتاريخ الإسلامى للمجاهدين الذين فضلوا الرباط على ثغور الإسلام على العكوف فى المحاريب .

* والتاريخ الإسلامى لتحرير المرأة . . والذى صنع ـ فى مدرسة النبوة ـ قيادات وريادات نسائية ، شاركت فى إقامة الدين وبناء الدولة وصناعة الحضارة . . واستمرت تعطى وتعلم وتبدع ـ عبر تاريخنا الحضارى ـ رغم ما أصاب حضارتنا من تراجع وهبوط وجمود . .

* والتاريخ الإسلامى مع الخوارج ، الذين مثلوا نزيفًا للدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية . . دون أن يحققوا أكثر من هذا النزيف !

* والتاريخ الإسلامى لمؤسسات الوقف ، التى مولت ـ أهليًا ـ صناعة الحضارة الإسلامية ، وإقامة العدل الاجتماعى على مر هذا التاريخ .

وغيرها . . الكثير . . والكثير من صفحات التاريخ .

إنها صفحات ، يمكن للدراسات التاريخية أن تقدمها من خلال وسائل الإعلام المعاصر ، لتثقيف الأمة بالقيم الإسلامية ، المقارنة بالسلوكيات الغربية . . ولتصحح المفاهيم الإسلامية المعاصرة ، بحقائق الإسلام وتاريخ أمته . . ولترد كيد المفترين على الإسلام وأمته وحضارته وتاريخه .

* * *

إنها صفحات من الوعى بالتاريخ ـ وليس مجرد القراءة للتاريخ ـ تضع ـ بالدراسات المقارنة ـ حقائق الإسلام إزاء الموقف من المقدسات ، فى مواجهة صفحات الخزى والعار التى جسدها تاريخ الغرب الاستعمارى إزاء مقدسات الإسلام والمسلمين .

الهوامش:

(١) ابن القيم: [زاد المعاد من هدى خير العباد] جـ٣ ص ٥٤٩، ٥٥٠. تحقيق: شعيب الأرناءوطى، عبد القادر الأرناءوطى، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٧م.

(٢) د. محمد حميد الله ـ محقق ـ: [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١١ ـ ١٢٨، طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٦م.

(٣) ابن عبد الحكم: [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦، طبعة ليدن، سنة ١٩٢٠م.

(٤) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ٣٤٥، ٣٤٦.

(٥) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة ـ ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٦) د. صبرى أبو الخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ١٩٤ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

(٧) المرجع السابق. ص ٦٢.

(٨) ساويرس بن المقفع: [تاريخ البطاركة] جـ١ ـ والنقل عن: سناء المصرى [حكايات الدخول] ص ١٣٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.

(٩) المقريزى: [الخطط] جـ٣ ص ٥٣٧، ٥٣٨. طبعة دار التحرير ـ القاهرة. والكندى. أبو يوسف ـ [كتاب الولاة والقضاة] ص ١٣٢. طبعة بيروت سنة ١٩٠٨م.

(١٠) سيجريد هونكة: [الله ليس كذلك] ص ٢٢. ترجمة: د. غريب محمد غريب، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

(١١) مكسيموس مونروند: [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق، المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول. ص ١٧٢، ١٧٦. ترجمة: مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

(١٢) ول ديورانت [قصة الحضارة] المجلد الرابع : الجزء الرابع . ص ٤٦ ـ ٥٣ . طبعة القاهرة .

(١٣) الجبرتي : [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس] ص ٧٢ . تحقيق : د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م .

(١٤) عبد الرحمن الرافعي : [ثورة سنة ١٩١٩م] جـ١ ص ١٧٥ ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة .

(١٥) المصدر السابق . ص ٧٦ ـ ٧٨ .

(١٦) صحيفة [العالم الإسلامي] ـ مكة المكرمة ـ العدد ١٨٦٧ في ١٦ شوال سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٩ نوفمبر سنة ٢٠٠٤م .

(١٧) سيجريد هونكة : [الله ليس كذلك] ص ٢٢ . ترجمة د . غريب محمد غريب . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٩٥م .

(١٨) المرجع السابق ص ٣٣ ، ٣٤ .

(١٩) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٢٠) عبد الرحمن الرافعي : [تاريخ الحركة القومية] جـ٢ ص ٢٩ ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م .

(٢١) المصدر السابق . جـ٢ ص ٣٠ .

***

المصادر والمراجع

* ابن عبد الحكم : [فتوح مصر وأخبارها] طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

* ابن القيم : [زاد المعاد من هدى خير العباد] تحقيق : شعيب الأرناءوطى، عبد القادر الأرناءوطى. طبعة بيروت سنة ١٩٩٧م.

* الجبرتى : [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس] تحقيق : د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م.

* سناء المصرى : [حكايات الدخول] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.

* سيجريد هونكة : [الله ليس كذلك] ترجمة : د. غريب محمد غريب. طبعة دار الشروق القاهرة سنة ١٩٩٥م.

* د. صبرى أبو الخير سليم : [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

* عبد الرحمن الرافعى : [ثورة سنة ١٩١٩م] طبعة دار الشعب ـ القاهرة.

[تاريخ الحركة القومية] طبعة القاهرة سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

* الكندى ـ أبو يوسف : [كتاب الولاة والقضاة] طبعة بيروت سنة ١٩٠٨م.

* د. محمد حميد الله ـ محقق : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

* المقريزى : [الخطط] طبعة دار التحرير ـ القاهرة.

* مكسيموس مونروند : [تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق، المدعوة حرب الصليب] ترجمة مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

* ول ديورانت : [قصة الحضارة] طبعة القاهرة.

* يوحنا النقيوسى : [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ترجمة ودراسة : د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

دوريات : [العالم الإسلامى] ـ مكة المكرمة ـ.

* * *

خيرية الأمة

« شروط مكتسبة لا عنصرية موروثة »

- ١ -

تمهيد

عندما يكون الحديث عن الصفات والشمائل التي يتحلى بها الإنسان ـ على مستوى الأفراد أو الجماعات ـ فإن هناك حدودا فارقة بين «**الصفات اللصيقة**» وبين «**الصفات المكتسبة**». . فإن يكن الإنسان طويلاً أو قصيراً . . أسود أو أبيض أو أصفر . . مرسل الشعر أو أجعده . . عربيًا أو أعجميًا . . شرقيًا أو غربيًا . . من سكان الشمال أو الجنوب . . إلخ . . إلخ . . فهي جميعا ـ وأمثالها ـ «**صفات لصيقة**» لا يتفاضل فيها أو بها إنسان على إنسان أو أمة على أمة؛ لأنها صفات جبلّية وطبيعية، لا دخل للإنسان في الاتصاف بها، ولا حيلة في تغييرها، حتى إذا أراد لها التغيير . .

ولذلك، فليس من العدل ولا من الحكمة أن يتفاضل الناس بهذا النوع من الصفات، وإلا كان ذلك تكليفًا للناس بما لا يطاق، وبما لا يستطيعون إليه سبيلاً ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما الصّفات التي يتم فيها وبها التفاضل بين الناس، فهي «**الصفات المكتسبة**»، التي يخضع اكتسابها والتفاوت في درجاتها للإرادات والطموحات والقدرات والمهارات، وذلك من مثل «الإيمان» و«التقوى» و«محاسن الأخلاق» و«البراعة في العلوم والفنون والآداب»، وفي «المهارات» التي تضع العلوم والفنون في الممارسات والتطبيقات . . فبهذه «**الصفات المكتسبة**» يتمايز الناس، أفرادًا وجماعات، ويتفاضلون ويتسابقون على درجات سلم «**الخيرية**»؛ لأن اكتساب هذه الصفات والتسابق في ميادينها هو مما يستطيعه الكافة، بحسب ما لديهم من عزائم وإرادات وقدرات ومهارات، وبقدر ما يبذلون في ذلك من مجهودات وتضحيات.

ولهذه الحقيقة البدهية، وجدنا العدل الإلهى يحدثنا عن أن التكريم ـ تكريم الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ إنما كان لمطلق بنى آدم. . «فالخلق» صفة لصيقة بجميع بنى آدم، والنفخ فيهم من روح الله ـ وهو سر التكريم ـ عام يستوى فيه الجميع، وكذلك «التسخير» الإلهى لكل قوى الطبيعة للإنسان ـ مطلق الإنسان ـ هو من القضاء الحتم الذى شاءته الحكمة الإلهية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وتحت هذا التكريم العام يأتى التفاضل والتفاوت والتمايز فى الصفات الإنسانية المكتسبة، ومنها «التقوى» و«العلم» ـ مثلاً ـ فيقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالخلق من ذكر وأنثى، وتقسيم الخلائق إلى شعوب وقبائل، هما من الصفات اللصيقة. . أما التفاضل بالتقوى فهو مما يكتسبه الإنسان، وتتفاوت فيه الدرجات والقدرات. . وكذلك الحال مع «العلم»: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

***

- ٢ -

خيرية مشروطة

ولهذه الحقيقة من حقائق العدل الإلهى ، كان حديث القرآن الكريم عن خيرية الأمة الإسلامية - وعن أنها خير أمة أخرجت للناس - حديثًا عن «**خيرية مشروطة**» باكتساب هذه الأمة لمجموعة من «**الصفات المكتسبة**» ، تتوقف خيريتها - ومقادير هذه الخيرية - على ما حصّلت هذه الأمة من هذه الصفات . . وليس حديثًا عن «**خيرية مطلقة**» ، تدعيها هذه الأمة بحكم العرق أو الجنس أو اللون أو الميراث أو التاريخ ، أو أية صفة من «**الصفات اللصيقة**» التى لا فضل لها فى تحديد معايير الخيرية ودرجاتها .

وإذا نحن ذهبنا إلى السياق القرآنى الذى تحدث عن خيرية الأمة الإسلامية ، وتميزها بهذه الخيرية عن غيرها من الأمم ، نجد مصداق هذا المنهاج الذى تحدثنا عنه وحددناه . . ففى هذا السياق - الذى تحدثت فيه آيات سورة آل عمران : ١٠٢ - ١١٠ عن هذه الخيرية - نجدها مشروطة باكتساب هذه الأمة الإسلامية ، وتحقيقها وتطبيقها للعديد من القيم والمبادئ والشروط . .

وذلك من مثل :

١ - أن تكون هذه الأمة «**أمة مؤمنة**» ، جامعة فى إيمانها كل أركان الإيمان - الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وبدين الله الواحد ، وبسائر الكتب والنبوات والرسالات - وذلك حتى لا تكون هذه الخيرية مجرد «منافع» دنيوية ، يحسّنها العقل المجرد عن الشرع ، بعيدا عن الانتماء لخالق الخير وواهبه للإنسان .

٢ - وأن ترتقى هذه الأمة - كى تحقق الخيرية على غيرها من الامم - على سلم الإيمان ، فتحقق مستوى «**التقوى**» ، التى هى الضمير الحى للمؤمن ، الذى يتقى

ويتجنب كل ما يغضب مولاه . . وللخيرية فى هذا المستوى درجات ، أعلاها أن نتقى الله حق تقاته ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران : ١٠٢] . . وأدناها أن نتقى الله قدر المستطاع ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن : ١٦] . . وللاستطاعة ـ هى الأخرى ـ درجات يتفاوت فى طلبها وتحقيقها المتقون .

٣ ـ وأن لا تكون هذه التقوى مقصورة على ذات الفرد التقى ؛ لأن الإسلام دين الجماعة ، وكثير من فرائضه وتكاليفه جماعية واجتماعية ، لا تتأتى ولا تُقام إلا فى وطن وأمة وجماعة واجتماع ، حتى إن رهبانية الإسلام كانت الجهاد فى سبيل الله ، وليست العزلة الفردية التى تبغى الخلاص الفردى عن طريق إدارة الظهر للجماعة والمجموع . . ولذلك كانت خيرية الأمة الإسلامية مرهونة بتحقيق فريضة التآلف والألفة والاتحاد والاعتصام بحبل الله . .

٤ ـ أما الشرط الرابع لخيرية الأمة الإسلامية ، فإنه شرط عام يشمل سائر فرائض العمل الاجتماعى العام . . إنه شرط أن تكون هذه الأمة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . . مغيرة للمنكر إذا وقع . .

* فإقامة العدل ـ مع الذات ومع الآخر ـ حتى لو كنا نكرهه ، أو حتى نحاربه .

* وإشاعة منهاج الوسطية الإسلامية الجامعة ـ فى الفكر والتطبيق .

* وإقامة الشورى ـ فى الأسرة . . والمجتمع . . والدولة .

* والتكافل الاجتماعى ، الذى يحقق عدالة التوازن ، والتوازن العادل بين شرائح المجتمع الإسلامى وطبقاته حتى تكون الأمة كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

* وتحقيق قيمة الحرية ـ المضبوطة بضوابط الشريعة الإلهية ـ فى مختلف ميادين الحياة ـ الفكرية والعملية .

* والجهاد لنصرة المظلومين وتحرير المستضعفين فى الأرض .

* والتسابق على طريق الخيرات التى تحقق سعادة الناس فى الدنيا والآخرة .

كل هذه الفرائض الاجتماعية ـ وأمثالها ـ هي بعض من التكاليف التي وضعها الإسلام تحت الفريضة العامة والجامعة: «**الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**». وهى التي أناطها بكل المكلفين ـ رجالا ونساء: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]..

وبإقامة هذه الفرائض الاجتماعية ـ والاتصاف بثمراتها ـ تتحقق خيرية الأمة الإسلامية.. بل إن غيبة هذه الفرائض الاجتماعية وصفاتها يسلب من الناس حتى معنى «الأمة ـ الجماعة».. وليس فقط صفة «الخيرية».. لأنهم يكونون عندئذ مجرد «أفراد» مبعثرين، وليسوا «أمة» من الأمم!..

***

عن ذلك كله تحدث القرآن الكريم، عندما عرض لخيرية الأمة الإسلامية، وشروط هذه الخيرية، وصفات الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس.. فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١١٠].

فجماع الصفات التي تحقق خيرية الأمة الإسلامية ـ إذا أردنا تكثيفها ـ هي:

١ ـ الإيمان . . الذى هو الشرط فى حفظ الأعمال من الإحباط . .

٢ ـ والعمل الصالح . . الذى تندرج كل شعبه وتكاليفه وفرائضه تحت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وجميع شروط هذه الخيرية وصفاتها ومؤهلاتها «مكتسبة»، وأبواب ميادينها مفتوحة أمام سائر عباد الله . . وليست صفات «لصيقة»، ولا هى حكر على من يتسمون بأسماء المسلمين، ويدّعون أنهم مسلمون ـ **ففارق بين أن يكون الناس مجرد مسلمين، وبين أن يكونوا الأمة الإسلامية التى هى خير أمة أخرجت للناس** . . بل إن الآية تقول : ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران : ١١٠] . . فأبواب الخيرية مفتوحة أمام الجميع ! . . وهى موصودة أمام الذين أوصدوها باختيارهم عندما كفروا بالتوحيد . . وفرقوا بين الرسل . . وكتبوا الكتاب بأيديهم ثم قالوا هو من عند الله . . وعندما ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة : ٧٩] .

***

- ٣ -

التعريف بالمصطلحات

ولأن هذا هو الموقف القرآنى من خيرية الأمة الإسلامية . . وتلك هى صفاتها وشروطها، كان لزاما تحرير مضامين المصطلحات فى هذا المبحث . . مصطلحات :

١ ـ الأمة . .

٢ ـ والخير . .

٣ ـ والمعروف . .

٤ ـ والمنكر . .

٥ ـ والفارق بين «الأمر . . والنهى» وبين «التغيير» . .

* ولأن شروط تكوين «الأمة» هى الأخرى شروط «مكتسبة»، وليست «الصبغة» ـ كالعرق والجنس واللون ـ كان معناها ومفهومها ـ فى العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ وفى الإسلام مفهومًا مفتوحة أبوابه لكل من يكتسب الشروط والصفات التى يطلق مصطلح «الأمة» على المكتسبين لها والمتصفين بها . . وكان تحقق معنى هذه الأمة مستمرا دائمًا وأبدا . .

فالأمة ـ كما يقول الراغب الأصفهانى [٥٠٢ هـ ـ ١١٠٨ م] ـ : **«كل جماعة يجمعها أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾** [الأنعام : ٣٨] . . أى كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع . . ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة : ٢١٣] . . صنفًا واحدًا وعلى طريقة واحدة . . ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لجعلكم أمة واحدة﴾ [المائدة: ٤٨] . . أى فى الإيمان . . ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ [آل عمران: ١٠٤] أى: جماعة يتخيرون العلم والعمل الصالح. يكونون أسوة لغيرهم . . ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ [الزخرف: ٢٣] . . أى على دين مجتمع . . ﴿وادكر بعد أمة﴾ [يوسف: ٤٥]: أى بعد حين، أى بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين . . ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله﴾ [النحل: ١٢٠] . . أى قائما مقام جماعة فى عبادة الله . . »[١].

ونحن نلاحظ أن جوامع الأمة، وإن صدرت عن التسخير الإلهى فى «الحيوان» و«الزمان» فإنها كانت دائمًا اختيارية مكتسبة فى عالم الإنسان . . وهذا ملحظ مهم له دلالته فى كون الخيرية - خيرية الأمة الإسلامية - هى ثمرة للشروط والصفات المكتسبة، المفتوحة أبواب ميادينها أمام الناس كافة . . ومن ثم فإن هذه الخيرية لا علاقة لها بالصفات اللصيقة، ولا بالاحتكار النابع من أوهام «العنصرية» التى سادت هذا المفهوم خارج إطار الإسلام! . .

هذا عن مصطلح الأمة . .

* أما مصطلح «الخير» فإنه - كما يقول الراغب الأصفهانى - **«ضربان»**:

١ - خير مطلق، وهو أن يكون مرغوبًا فيه بكل حال وعند كل أحد . . كالعقل مثلاً، والعدل، والفضل، والشىء النافع.

٢ - وخير مقيد، وهو ما يكون خيرًا لواحد شرًا للآخر، كالمال الذى ربما يكون خيرًا لزيد وشرًا لعمرو، ولذلك وصفه الله - تعالى - بالأمرين فقال فى موضع: ﴿إن ترك خيرا﴾ [البقرة: ١٨٠]. **وقال فى موضع آخر:** ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين (٥٥) نسارع لهم فى الخيرات﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦][٢].

* أما مصطلح «المعروف» فهو - عند الراغب الأصفهانى -: **«اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حُسنه»**.

* ويقابله «المنكر»: **الذى يُنكر بالعقل والشرع معًا**[٣].

- ٤ -

رؤية حضارية لخيرية الأمة

ولقد كان الإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] من أكثر المفسرين المجتهدين الذين وقفوا وقفات عبقرية وواعية أمام هذه الآيات التى تحدثت عن صفات الخيرية فى الأمة الإسلامية، مفصلاً فى الآفاق والمقاصد الحضارية ـ العصرية والمستقبلية ـ التى تجعل هذه الخيرية سبيلاً للإقلاع الحضارى، الذى يحتق المسلمين وينقذهم من المأزق الذى يأخذ منهم بالخناق. .

* فهو يعرّف «الخير» ـ المراد فى هذه الآيات ـ بأنه **«الإسلام، الذى هو دين الله على لسان جميع الأنبياء لجميع الأمم، وهو الإخلاص لله تعالى، والرجوع عن الهوى إلى حكم الله، وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطًا وشهداء على الناس. .»**.

* **«وخيرُ أمة أخرجت للناس. . مقيد بكوننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر»**[٤].

فليست كل قوة محمودة. . وليس كل تمكين فى الأرض يكون خيرًا ـ بهذا المعنى الإسلامى للخير والخيرية ـ ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]. . ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٤]. . ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٢].

فهناك «مفاهيم فرعونية» للخيرية، لا علاقة لها بالمفهوم الإسلامى لهذه الخيرية..
والذى يجب أن يرتكز على إقامة الفرائض التى تجمعها فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

* ولقد جاء تعريف الإمام محمد عبده لمصطلحى «المعروف» و«المنكر» قريبًا من تعريف الراغب الأصفهانى لهما..

«فالمعروف - عند إطلاقه -: يراد به ما عرفته العقول والطباع السليمة، والمنكر: ضده، وهو ما أنكرته العقول والطباع السليمة. وإنما المرشد إليه - مع سلامة الفطرة - كتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر، والعمل، وهو ما لا يسع أحد جهله، ولا يكون المسلم مسلمًا إلا به»(٥).

«ولقد وقف الإمام محمد عبده وقفة ذكية أمام اختلاف المفسرين فى معنى «من» فى آية ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]... وهل معنى «من» هو «البيان»، فتكون الخيرية لكل الأمة وعامتها؟ وتكون فرائض الدعوة إلى الخير - الإسلام - والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبة على كل آحاد الأمة؟؟

أم أن معنى «من» هو «التبعيض»، فتكون فريضة الدعوة إلى الخير - الإسلام - والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خاصة بفئة بعينها، هى «الأمة الخاصة» التى تتكون من الصفوة والنخبة والقيادات التى تختارها - لهذه المهمة - الأمة العامة؟؟

لقد وقف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وقفة ذكية أمام هذا الاختلاف الشهير بين المفسرين لمعنى «من» فى هذه الآية. وانتهى - بعد الشرح والتفصيل - إلى الرأى الذى يجمع بين التفسيرين..

فنحن - بإزاء جماعة المسلمين - أمام أمتين، أو أمة ذات مستويين:

١ - المستوى العام للأمة العامة.. والدعوة إلى الخير - الإسلام - والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - مثلها كمثل الإيمان بالله - فريضة على كل واحد من أفراد هذه

الأمة، بحسب المقدرة والاستطاعة والإمكانات التى لدى كل فرد من الأفراد . .

٢ ـ والمستوى الخاص للأمة الخاصة، ذات المؤهلات الأعلى والقدرات الأكبر فى النهوض بهذه الفريضة . . واختيار هذه الأمة الخاصة وانتخابها ـ وكذلك مراقبتها ومحاسبتها وتغييرها ـ هو فرائض واجبة على الأمة الإسلامية بالمعنى الشامل والعام . .

وفى هذا التفسير الجامع يقول الأستاذ الإمام:

«وإذا كان كل فرد من أفراد المسلمين مكلفًا بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمقتضى الوجه الأول فى تفسير الآية ـ على أن «من» بيانية ـ فإنهم مكلفون بمقتضى الوجه الثانى ـ على أن «من» للتبعيض ـ أن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل لأجل أن تتقنه وتقدر على تنفيذه . . فإقامة هذه الأمة الخاصة فرض عين يجب على كل مكلف أن يشترك فيه مع الآخرين . ولا مشقة فى هذا علينا، فإنه يتيسر لأهل كل قرية أن يجتمعوا ويختاروا واحدا منهم أو أكثر، أن يختاروا جماعة يصح أن يطلق عليهم لفظ الأمة، ويعملوا ما تعمله بالاتحاد والقوة ليتولوا إقامة هذه الفريضة فيها، كما يجب فى كل مجتمع إسلامى ـ سواء كان فى الحواضر أو البوادى ـ فإن معنى الأمة يدخل فيه معنى الارتباط والوحدة التى تجعل أفرادها على اختلاف وظائفهم وأعمالهم ـ حتى فى إقامة هذه الفريضة عند تشعب الأعمال فيها ـ كأنهم شخص واحد .

وهذه الأمة يدخل فى عملها الأمور العامة التى هى من شأن الحكام، وأمور العلم وطرق إفادته ونشره، وتقرير الأحكام، وأمور العامة الشخصية . ويشترط فيها العلم بذلك، ولذلك جعلت أمة، وفى معنى الأمة القوة والاتحاد، وهذه الأمور لا تتم إلا بالقوة والاتحاد . . وأعمال هذه الأمة لا تتم إلا بأمور كثيرة، منها:

١ ـ العلم التام بما يدعون إليه . .

٢ ـ والعلم بحال من توجه إليهم الدعوة . .

٣ ـ ومناشئ علم التاريخ العام . .

٤ ـ وعلم تقويم البلدان . .

٥ ـ وعلم النفس . .

٦ ـ وعلم الأخلاق . .

٧ ـ وعلم السياسة .

٨ ـ والعلم بالفنون والعلوم . .

٩ ـ ومعرفة الملل والنحل .

١٠ ـ والعلم بلغات الأمم التى تراد دعوتها . .

ثم إن كون الأمة الخاصة منتخبة من الأمة العامة يقتضى أن تكون للعامة رقابة وسيطرة على الخاصة ، تحاسبها على تفريطها ، ولا تعيد انتخاب من يقصر فى عمله لمثله ، فالأمة الصغرى المنتخَبة ـ بفتح الخاء ـ تكون مسيطرة على أفراد الأمة الكبرى المنتخبة ـ بكسر الخاء ـ وهذه تكون مسيطرة على الأمة الصغرى ، وبهذا يكون المسلمون فى تكافل وتضامن . . فهاهنا فريضتان :

إحداهما : على جميع المسلمين . .

والثانية : على الأمة التى يختارونها للدعوة .

ولا يفهم معنى هذا حق الفهم إلا بفهم معنى لفظ الأمة ، وليس معناه «الجماعة» كما قيل ، وإلا لما اختير هذا اللفظ . والصواب أن الأمة أخص من الجماعة ، فهى الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء فى بنية الشخص ، والمراد بكون المؤمنين كافة مخاطبين بتكوين هذه الأمة لهذا العمل هو أن يكون لكل فرد إرادة وعمل فى إيجادها وإسعادها ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة ، حتى إذا رأوا منها خطأ وانحرافًا أرجعوها إلى الصواب .

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول ، لا سيما زمن أبى بكر [٥١ ق هـ١٣ هـ/ ٥٧٣ ـ ٦٣٤م] وعمر [٤٠ ق هـ ـ ٢٣هـ/ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] على هذا النهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة ، حتى كان الصعلوك من رعاة الإبل يأمر مثل عمر بن الخطاب ـ وهو أمير المؤمنين ـ وينهاه فيما يرى أنه الصواب ، ولا بدع فالخلفاء على نزاهتهم وفضلهم ليسوا بمعصومين ، وقد صرح عمر بخطئه ورجع عن رأيه غير مرة . . »[٦] .

وبهذا التفسير الجامع لمعانى حرف «من» - البيان . . والتبعيض - تكون أعباء الخيرية وتكاليفها، وكذلك ثمراتها وفضائلها عامة فى الأمة الإسلامية، بالمعنى العام للأمة، وبالمعنى الخاص المتمثل فى الصفوة والنخبة والريادات والقيادات، فلا تكون الخيرية حكرا على فريق دون غيره من الفرقاء.

* * *

وعلى حين اتجه بعض المفسرين لهذه الآيات القرآنية - آيات الصفات والشروط المحققة لخيرية الأمة الإسلامية - إلى تضييق نطاق من تجب عليهم فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - من باب آخر - فأخرجوا من هذا النطاق من كان غير مؤتمر بالمعروف ومنته عن المنكر . . ومن كان غير آمن على نفسه إذا هو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . . رأينا الأستاذ الإمام يرفض هذا الاتجاه، ويؤكد على وجوب هذه الفريضة الجامعة على كل المؤمنين بالإسلام . . فيقول - متعجبا من هذا الرأى - :

«ومن عجب أن بعض الناس اشترطوا لهذه الفريضة - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - شرطًا لم يأذن به الله، ولم ينزله فى كتابه، وهو أنه لا يأمر وينهى إلا من كان مؤتمرًا، ومنتهيًا . .

ويشترط بعضهم للوجوب شرطًا آخر، وهو الأمن على النفس . . وكان ينبغى أن يقولوا: على الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا ينفر الناس، أو لا يحملهم على إيذائه، فإن الله يقول: إنه لا نجاة للناس إلا بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر، ولم يشترط فى ذلك شرطًا.

إن الله - تعالى - أمر الناس بالتواصى بالحق والدعوة إلى الخير، وأمرهم أن يعدوا لذلك عدته ويعرفوا سبله، وهى مبسوطة فى السنة . . فهذه هى الحكمة، وبها تجب القدوة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] . . وإنا لن نكون متبعين له حتى نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر على سنته وطريقته . . »[٧].

* * *

كذلك يرفض الأستاذ الإمام محمد عبده الآراء التى تذهب إلى تضييق نطاق

التكليف بهذه الفريضة الجامعة لشروط الخيرية وصفاتها، عن طريق اشتراط «قدرات متميزة» فيمن يقوم بها . . وينبه الأستاذ الإمام على أن ذلك إنما حدث لأصحاب هذا الرأى من الخلط بين «**الأمر**» بالمعروف و«**النهى**» عن المنكر، وبين «**التغيير**» للمنكر . . فالتغيير هو الذى يحتاج إلى شروط وقدرات وإمكانات وتخصصات؛ لأنه «تغيير» للمنكر بعد وقوعه فهو «فعل» يقتلع «واقعًا» . . أما «الأمر» . . «والنهى» فإنهما فريضة عامة وشاملة لكل آحاد المؤمنين، ولجماعتهم على السواء . . وهما تنبيه وتحذير للحيلولة دون تجسد المنكر فى الواقع والتطبيق . .

ينبه الأستاذ الإمام على هذه الحقيقة، فيقول:

«وهنا يخلطون . . بين النهى عن المنكر وتغيير المنكر الذى جاء فى حديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره . . » - رواه مسلم والترمذى والنسائى -. وهنا شىء آخر غير النهى البتة، فإن النهى عن الشىء إنما يكون قبل فعله، وإلا كان رفعًا للواقع أو تحصيلاً للحاصل، فإذا رأيت شخصًا يغش السمن مثلاً وجب عليك تغيير ذلك ومنعه بالفعل إن استطعت، فالقدرة والاستطاعة هنا مشروطة بالنص، فإن لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان، وهو غير خاص بنهى الغاش ووعظه، بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذى يمنعه بقدرة فوق قدرتك. أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضى بفعله. وللنهى طرق كثيرة وأساليب متعددة، ولكل مقام مقال.

نعم، إن دعوة الأمة غيرها من الأمم إلى الخير الذى هى عليه لا يطالب بها كل فرد بالفعل، إذ لا يستطيع كل فرد ذلك، وإنما يجب على كل فرد أن يجعل ذلك نصب عينيه حتى إذا عنّ له بأن لقى أحدًا من أفراد تلك الأمم دعاه، لا أنه ينقطع لذلك ويسافر لأجله، وإنما يقوم بهذا طائفة يعدون له عدته، وسائر الأفراد يقومون به عند الاستطاعة، فهو يشبه فريضة الحج، وهى فرض عين ولكن على المستطيع.

وفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر آكد من فريضة الحج، ولم يشترط فيها الاستطاعة لأنها مستطاعة دائمًا . .

وجملة القول، أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض حتم على كل مسلم . . وكون هذا حفاظًا وحرزًا للأمة ظاهر، فإن الناس إذا تركوا دعوة

الخير، وسكت بعضهم لبعض على ارتكاب المنكرات خرجوا عن معنى الأمة، وكانوا أفذاذا متفرقين لا جامعة لهم. . فلا بد للمرء فى حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب والخيانة والحسد والغش. فهذا ليس من فروض الكفاية التى يتواكل فيها الناس كصلاة الجنازة. . ولكنه إذا رأى منكرًا وجب عليه أن ينهى عنه ولا ينتظر غيره. . »(٧).

❊ ❊ ❊

هكذا تجلت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فريضة جامعة لصفات الخيرية فى الأمة الإسلامية، وهى فريضة يتوجه التكليف الإسلامى بها إلى الكافة؛ لأن شروطها وصفاتها مكتسبة، مفتوحة أبواب ميادينها أمام أصحاب العزائم والإرادات من كل الأجناس والطبقات. . وليست حكرًا على سلالة أو جنس أو لون أو طبقة، كحال الصفات اللصيقة، التى هى جِبِلِّية لا مجال فيها للاجتهاد والتغيير.

وهكذا رأيناها فى التصور الحضارى للإمام محمد عبده معبرة عن خلاصة «مشروع للنهضة»، تصلح به الأمة آخرها، كما سبق وأصلحت به أولها. . وليست مجرد صورة تقليدية للحض على العبادات الفردية، كما تصورها ويصورها نفر من أهل الجمود والتقليد! . .

إنها إقامة النظام الإسلامى المؤمن، والعادل والشامل، المحقق للأمانة التى حملها الإنسان الخليفة لله ـ سبحانه وتعالى ـ. . أمانة «العمران المؤمن» لهذا الوجود.

فبإقامة «العمران المؤمن» تتحقق خيرية الأمة الإسلامية، ذلك الذى يتحقق فيه وبه انتماء الأمة إلى بارئها ـ سبحانه وتعالى ـ متطلعة أرواحها إلى مصدر الروح الإلهى الذى منه كان الشرف والتشريف والتكريم والتفضيل للإنسان حتى على الملائكة المقربين.

وبقيام هذا «العمران المؤمن» على «التقوى»، التى هى الثمرة الطيبة لفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تتحقق خيرية الأمة الإسلامية، عندما تثمر هذه الفريضة «النظام العام. . والآداب العامة»، فتكون الخيرية ـ فى كلمات قليلة ـ هى الأمانة التى عرضها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان! . .

* إن العدل اسم من أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى موازين العدل قامت عوالم السماوات والأرضين.

* وفى الاجتماع الإنسانى، جاءت الشريعة الإلهية عدلاً كلها.. وحكمة كلها..

* ولذلك، جعل الله للخيرية فى الأمم والشعوب والحضارات معايير غير خاضعة للمحاباة.ولا للميراث.. ولا للادعاء ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].. ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].. ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

أما الذين يجعلون من الخيرية ميراثًا عن الآباء والأجداد ـ مع التخلى عن شروطها وصفاتها ومؤهلاتها ـ فإنهم أشبه ما يكونون باللصوص الذين يأكلون التراث أكلاً لمًا.. أو الذين لا يرون فى تاريخهم الحضارى أكثر من «أكفان للموتى»!.. طامعين فى معاندة السنن الإلهية الحاكمة لأسباب التقدم والتخلف، والنهوض والانحطاط ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

[آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤٢]..

فأبواب الخيرية مفتوحة على مصاريعها أمام الأفراد والأمم والشعوب.. وشروطها وصفاتها ومؤهلاتها هى نعم إلهية متاحة للراغبين العاملين فى مختلف الميادين.

وإلا فإن الذين فضل الله آباءهم على العالمين، يمكن أن يكونوا الأذلة الملعونين أينما ثقفوا إلا بحبل من الله الذى لا تحابى عدالته أحدًا من العالمين.

* * *

- ٥ -

عنصرية نزعة شعب الله المختار

وفى مقابل هذا المنهاج الإسلامى الذى يُخضع الخيرية - فى الأمم والشعوب والحضارات - للسببية والأسباب، ويجعلها ثمرة للصفات المكتسبة، المتاحة للأفراد والجماعات.. وجدنا ونجد النزعة العنصرية فى «التراث اليهودى»، وفى «تاريخ» الجماعات اليهودية، وفى «الممارسات الصهيونية» القائمة فى واقعنا المعاصر الذى نعيش فيه.

* لقد حولت هذه النزعة العنصرية شريعة اليهودية التى جاء بها موسى ﷺ عن جوهر التوحيد، الذى يجعل الله - سبحانه وتعالى - واحداً أحداً وربا لكل العالمين، إلى حيث احتكرته لذاتها - على قلة عدد أصحابها - جاعلة للشعوب الأخرى آلهتها!

* وحولت هذه النزعة العنصرية معايير التدين باليهودية عن أصولها الطبيعية والمنطقية.. فبدلاً من أن يكون الإيمان الدينى، والالتزام بمنظومة القيم والأخلاق، وعبادة الله وفق ما جاءت به الشريعة، هى معايير «التهود»، جعلوها معايير عرقية وعنصرية - بيولوچية! -.. فاليهودى - فى هذه النزعة العنصرية - هو المولود من أم يهودية حتى ولو انقطعت علاقاته بجوهر الدين!.. وبعبارة المفكر اليهودى «إسرائيل شاحاك»: **«فإن كون الإنسان يهوديا يعتمد على الانحدار من سلالة الأم، وليس على الإيمان الفعلى للشخص»**[9]..

* وحولت هذه النزعة العنصرية معايير الخيرية من الأسباب والصفات الموضوعية والمكتسبة، إلى حيث جعلوها احتكاراً موروثاً فى نطاق هذه القلة التى تدعى الانتساب إلى العبرانيين القدماء.. فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].. وزعموا

أنهم وحدهم ـ وبصرف النظر عن المؤهلات والصفات ـ هم «شعب الله المختار»، الذين اصطفاهم واختارهم، بل و«قدسهم» دون العالمين . . وفوق جميع العالمين ! . .

* وانطلاقًا من هذه النزعة العنصرية، التى احتكرت الخيرية، وارتفعت بها إلى مستوى «القداسة» و«العصمة» ـ عصمة الذين يفعلون ما يريدون، ولا يُسألون عما يفعلون ! ـ كان العداء والاحتقار . . والكراهية . . والاستباحة لكل الأغيار ـ الذين يبلغون اليوم أكثر من ستة مليارات نسمة ـ فى مقابل ثلاثة عشر مليونًا من اليهود ! ! . . فكل هؤلاء الأغيار ـ أى كل خلق الله تقريبًا ـ مستباحة حرماتهم . . وأعراضهم . . ودماؤهم . . وأموالهم . . وأوطانهم ؛ لأنهم ليسوا من «شعب الله المختار»، المقدس دون جميع الشعوب، وفوق جميع الشعوب ! . .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النزعة العنصرية عندما قال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة : ١١٣] . . ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة : ١١١] . ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٥] . . ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : ١٠٠] . .

* لقد فتح القرآن الكريم أبواب النجاة أمام كل الذين يؤمنون بوحدانية الله . . ويؤمنون بالغيب . . ويعملون الصالحات، على تنوع الشرائع الإلهية التى يتخذونها سبيلاً للتعبير عن أصول هذا الإيمان ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة : ٦٢] . .

* ودعا القرآن الكريم كل أمم الرسالات السماوية إلى كلمة سواء : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

* وقررت السنة النبوية - فى الممارسات الحياتية والاجتماعية وحقوق المواطنة - كامل المساواة لكل البشر، على اختلاف الأجناس والألوان والمعتقدات: **«لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»**(١٠).

* ولقد نهض رسول الله ﷺ احترامًا لحرمة جنازة يهودى - غير مسلم - . فلما تساءل بعض أصحابه:

- يا رسول الله، إنها جنازة يهودى؟! قال صلى الله عليه وسلم:

- **«أليست نفسا»**؟ . .

وصنع ذلك صحابته مع جنازات مجوسية إبان التحرير الإسلامى للعراق - رواه البخارى ومسلم - .

* وكتب الإمام على بن أبى طالب [٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١م] - كرم الله وجهه - فى عهد تولية واليه على مصر «الأشتر النخعى» [٣٧ هـ - ٦٥٧م] - يعلمه هذه القيم الإسلامية، فقال له: **«الناس صنفان: إما أخ لك فى الدين، وإما نظير لك فى الخَلْق»**(١١).

* * *

* لكن النزعة العنصرية لعقيدة «شعب الله المختار» قد جعلت اليهود - بنص الأسفار التى كتبوها بأيديهم ثم قالوا هى من عند الله . . وبنص شروحها المرجعية فى [التلمود] - قد جعلتهم يقولون:

- **«إن كلمة «نفس» تعنى اليهودى، ويستثنى منها غير اليهود والكلاب»**(١٢).

- **«وإن الأغيار ليسوا من الإنسانية . . وإنما هم شياطين . . وكلاب . . وحمير . . وخنازير . . فكل غير اليهود مخلوقات شيطانية، ليس بداخلها أى شىء جيد على الإطلاق، حتى الجنين غير اليهودى يختلف نوعيًا عن الجنين اليهودى، كما أن وجود غير اليهودى مسألة غير جوهرية فى الكون، فلقد تشاكل الخلق من أجل اليهود فقط»!**(١٣).

* وانطلاقًا من هذه النزعة العنصرية فى احتكار الخيرية . . بل واحتكار الإنسانية ! ! . . أفاض [التلمود] . . الذى هو جماع الشريعة عند اليهود - فى الحض على :

- لعن الأغيار . . وأمهاتهم . . . بل وموتاهم ؛ لأنهم كلاب ! . . والدعاء عليهم بالدمار» ![14].

- وإسقاط الأهلية عن كل الأغيار ![15].

- وإباحة النَّصْب على الأغيار ، والخداع لهم ![16].

- وإباحة سرقة الأغيار ![17].

- والحض على الربا فى التعامل مع الأغيار ![18].

- بل وإباحة الزنا بنسائهم «لأن كل النساء غير اليهوديات عاهرات» ![19].

* وإذا كانت مجلدات [التلمود] هى الشريعة المعتمدة التى شرحت أسفار [العهد القديم] ، فإن هذه الأسفار هى المرجعية العليا المعتمدة ، لا عند اليهود فقط ، بل وعند النصارى أيضًا ، وهى الينبوع الطافح بهذه العنصرية الدموية ، المكونة لثقافة الكراهية السوداء ضد سائر الأغيار ، من مختلف الأمم والشعوب ، والديانات والحضارات . . أى ضد سائر خلق الله ! . .

- لقد جعل اليهود لهم إلهًا خاصًا بهم ، «يهوه» وجعلوه «رب الجنود . . والجيوش . . المتعطش للارتواء بدماء كل الأمم والشعوب - غير اليهود - . . وتحريم - أى إهلاك وإبادة - كل مكونات الحياة لدى كل الأمم والشعوب - غير اليهود» ! ! . .

ولذلك ، كتبوا على لسان «يهوه» فى سفر حزقيال . . [إصحاح ٣٩ : ١٧ - ١٩] :

- «هكذا قال السيد الرب : قل لطائر كل جناح ولكل وحوش البر اجتمعوا وتعالوا احتشدوا من كل جهة إلى ذبيحتى التى أنا ذابحها لكم ، ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحمًا وتشربوا دمًا . تأكلوا لحم الجبابرة وتشربوا دم رؤساء الأرض ، كباش وحملان وأعتدة وثيران من مسمنات باشان ، وتأكلون الشحم إلى الشبع وتشربون الدم إلى السكر من ذبيحتى التى ذبحتها لكم» ! ! . .

كما كتبوا على لسان ذلك الرب فى سفر أشعيا. [إصحاح ٣٤: ١ ـ ٦]:

ـ «اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا، وأيها الشعوب اصغوا لتسمع الأرض وملؤها، المسكونة وكل نتائجها؛ لأن للرب سخطًا على كل الأمم وحُمواً على جيشهم. قد حرمهم ـ أهلكهم ـ ودفعهم إلى الذبح. فقتلاهم تطرح وجيفهم تصعد نتانتها وتسيل الجبال بدمائهم، ويغنى جند السماوات: للرب سيف قد امتلأ دما»!!..

فالكون مسرح للذبح والمذبحة والذبيحة، تهلك فيها كل شعوب الأرض ورؤساؤها، لتطرح جيفهم، وتصعد نتانتها، وتسيل بدمائهم الجبال، حتى تسكر الطيور والوحوش بدماء سائر الشعوب.. ويغنى جند بنى إسرائيل: إن للرب سيفا قد امتلأ دما!!..

ولماذا كل هذا؟!..

ليشفى «شعب الله المختار» غليله من كل الأغيار!!..

ولتأبيد هذه الثقافة العنصرية الدموية تجاه جميع الأغيار ـ من كل الأمم والشعوب والديانات والحضارات ـ قرن أحبار اليهود ـ الذين أعادوا كتابة أسفار التوراة فى مناخ السبى البابلى، وفى ظلال أحقادهم فيه ـ قرنوا العقيدة العنصرية، التى تجعلهم ـ وحدهم ـ أبناء الله وأحباؤه وأولياؤه وشعبه المختار، بل والمقدس، دون كل الشعوب، وفوق جميع الشعوب، قرنوها بدعوة الرب إياهم إلى إبادة الشعوب، بل وأكلهم أكلاً!.. فنثروا فى أسفار العهد القديم النصوص، التى نسبوها إلى ربهم، والتى تقول لهم ـ على سبيل المثال ـ:

ـ «فقال الرب لموسى: اكتب هذا تذكارًا فى الكتاب، وضعه فى مسامع يشوع: فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء» سفر الخروج. [إصحاح ١٧: ١٤].

ـ «إن سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولا.. فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرّمها ـ تهلكها ـ بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف. تجمع كل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بعد.. لكى يرجع الرب عن حموّ غضبه ويعطيك رحمة»! ـ سفر التثنية. [إصحاح ١٣: ١٢، ١٥ ـ ١٧].

فرحمة الرب مرهونة مشروطة بإبادة الأغيار وكل مكونات الحياة عند هؤلاء الأغيار، لمجرد أنهم «قالوا قولا» سمعه اليهود! . .

- «وكلم الرب موسى فى عربات موآب على أُرْدُنّ أريحا قائلا: كلّم إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون للأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم. . تملكون الأرض وتسكنون فيها، وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم فى الأرض التى أنتم ساكنون فيها، فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم»! سفر العدد. [إصحاح. ٣٣: ٥٠ـ٥٣، ٥٥، ٥٦].

«وحين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن. فلا تَسْتَبْقِ منها نسمة ما. بل تحرمها ـ تهلكها»

سفر التثنية. [إصحاح ٢: ١٠ـ١٦].

فالذين يصالحون ويسلّمون، لهم العبودية والاستعباد. . والذين لا يصالحون ولا يسلمون لهم الإبادة والدمار!! . .

- «يقف الأجانب ويرعون غنمكم، ويكون بنو الغريب حرّاثيكم وكرّاميكم، أما أنتم فتدعون كهنة الرب، تأكلون ثروة الأمم، وعلى مجدهم تتأمّرون»!

سفر أشعيا. [إصحاح ٦١: ٥].

فكل الأجانب وجميع الغرباء وسائر الأغيار خدم وعبيد مسخرون عند اليهود، الذين يأكلون ثروة كل الأمم، ويتملكون ويتأمرون على سائر الشعوب!! . .

- «سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرّمهم ـ تهلكهم ـ . . لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم. . لأنك أنت شعب مقدس للرب

إلهك . إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض . . مباركًا تكون فوق جميع الشعوب ، لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك . ويرد الرب عنك كل مرض ، وكل أدواء مصر الرديئة التى عرفتها لايضعها عليك ، بل يجعلها على مبغضيك . وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك . لا تشفق عيناك عليهم»!!!

سفر التثنية . [إصحاح ٧ : ١ ـ ٣ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ ـ ١٦] .

إنها ذروة العنصرية ، وقمة الدموية ، وخلاصة هذه النزعة التى تجاوزت كل الحدود . . اليهود شعب الله المختار ، الذى اختاره دون جميع الشعوب ، وجعله فوق جميع الشعوب ، بل هم الشعب المقدس ـ مع بهائمه كذلك ! ـ لا تصيبه أى من الأمراض . . التى يدفعها الرب إلى أعداء اليهود . .

وفى هذا النص ، لم يكتفوا بأن تكون لهم السيادة والإمارة على الأم ، وبأن يأكلوا ثروات الأم ، ويستعبدوا تلك الأم . فأضافوا إلى كل ذلك التشريع «لأكل كل الشعوب» . . دونما عهد يُقطَع . . ولا عين تشفق على تلك الشعوب ! . .

* * *

* ولم يكتفوا بتأثيرات هذه النصوص «الدينية» ـ وغيرها كثير ـ فى تأجيج نيران الثقافة العنصرية ـ ثقافة الكراهية السوداء ـ تجاه جميع الأغيار . . وإنما ذهبوا لتأبيدها ، وتأبيد تأثيراتها العنصرية على امتداد الدهور .

فبعد أن جعلوا إلههم هذا ـ يهوه ـ «الرب الذى لا يبرئ ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء» ! ـ سفر العدد . [إصحاح ١٤ : ١٨] . . امتدوا بهذه العنصرية ، وهذه الكراهية ، وهذه الإبادة لتفعل فعلها فى واقع الممارسات التى يمارسها الكيان الصهيونى ضد الفلسطينيين ، فى واقعنا المعاصر والمعيش ! ـ وذلك بدعم من الصليبية الغربية ، شريكتهم فى ثقافة العهد القديم !

ـ فالحاخام «العقيد . أ . فيدان (زيمبل) يفتى ـ فى سبعينيات القرن العشرين ـ فتوى تنشرها القيادة العسكرية للمنطقة الوسطى فى الجيش الصهيونى ـ التى تقع الضفة

الغربية تحت سلطتها ـ يجدد فيها ويطبق هذه النصوص العنصرية الدموية التى كتبت فى العهد القديم . . ويقول فى هذه الفتوى المعاصرة .

«فى حالة احتكاك قواتنا بمدنيين خلال الحرب، أو خلال مطاردة حامية، أو غارة، إذا لم يتوافر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا، هناك إمكانية لقتلهم، أو حتى ضرورة للقيام بذلك حسب الهالاكاه ـ الشريعة ـ . بل تحض الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين»!![٢٠].

فالقتل واجب للمدنيين الطيبين، بمقتضى الشريعة الحاكمة والمكونة لهذه الثقافة العنصرية الدموية . .

ـ أما الحاخام «شمعون وايزر»، فإنه يفسر لأحد الجنود الصهاينة الذين يخدمون فى فلسطين المحتلة سنة ١٩٦٧م نص العهد القديم : **«ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء»** سفر التثنية . . [إصحاح ٢٥ : ١٩]، فيجعل الفلسطينيين ـ وكل الأغيار ـ المعاصرين مثل «العماليق»، المطلوب ـ دائما وأبدا كلما أمكن ـ محو ذكراهم من تحت السماء . . فيقول هذا الحاخام :

«إنه لا يسمح فى زمن الحرب بقتل كل عربى أو امرأة فحسب، بل يجب القيام بذلك أيضا»![٢١]

ـ وحتى لحظات كتابة هذه الدراسة ـ مارس سنة ٢٠٠٥م ـ يعلن الحاخام الصهيونى البارز «دافيد دودكفيتش» حاخام مستوطنة «يتسهار» ـ المقامة على الأرض الفلسطينية المحتلة، قرب مدينة نابلس، فى الضفة الغربية ـ والذى يمثل المرجعية الروحية الرئيسية «لفتية التلال» اليهود، الذين يقومون بالاستيلاء على الأراضى الفلسطينية عنوة، ويقيمون عليها المستوطنات اليهودية يعلن هذا الحاخام البارز ـ فى مقابلة صحفية مع المجلة الأسبوعية الصهيونية «بشيفع» ـ أنه **«يزوّد المستوطنين اليهود بالتعليمات المفصلة التى تبيح لهم، بل وتحضهم على سرقة المحاصيل الزراعية للفلسطينيين»!! . . مبررا السرقة والاستيطان بقوله : «إننى لا أرى أن هذا الأمر غير شرعى من ناحية التوراة . هذه أوامر الرب»!!**[٢٢]

فالاستيلاء على أرض الأغيار، وحتى سرقة المحاصيل الزراعية التى زرعها الأغيار هو «أوامر» الرب لليهود حسب التوراة! . .

***

تلك هى العنصرية اليهودية . . التى أدركها . . وتحدث عنها الإمام محمد عبده، عندما قال ـ فى تفسير قول الله ـ سبحانه ـ على لسان اليهود: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

«إن اليهود حصروا الثقة بأنفسهم لزعمهم أن النبوة لا تكون إلا فيهم. بل غلوا فى التعصب والغرور حتى حقروا جميع الناس، فجعلوا كل ما يكون من أنفسهم حسنا، وما يكون من غيرهم قبيحا، وهذا من الانتكاس الذى يحول بين أهله وبين كل خير.

وإننا نرى من الناس اليوم من يحاول تغرير قومه بحملهم على أن يكونوا كذلك، يحقرون كل ما لم يأت منهم وإن كان حسنًا. فنعوذ بالله من الخذلان، وعسى أن يعتبر هؤلاء بما رد الله به على أهل الكتاب إذ قال لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]. لا هدى شعب معين هو لازم من لوازم ذاته، فهو ـ سبحانه ـ يبين هذه على لسان من شاء من عباده، لا تتقيد مشيئته بأحد ولا شعب»[٢٣].

***

- ٦ -

العصمة الدولية لشعب الله المختار!

ولو أن هذه العقيدة العنصرية الدموية قد وقفت عند اليهود، لهان الأمر بعض الشيء، ولجاز أن نقول إنها شذوذ فكرى، تقف حدوده وتأثيراته الكارثية عند أقلية لا يتعدى عددها ثلاثة عشر مليونًا من الناس. لكن الطامة الكبرى أن أصبحت هذه العقيدة العنصرية الدموية - أن اليهود هم شعب الله المختار، دائمًا وأبدًا - عقيدة دينية للصليبية الغربية، التى تلعب الدور الأكبر فى توجيه السياسة الدولية الحديثة والمعاصرة.

فمنذ التحول العقدى الذى أحدثه «مارتن لوثر» [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] فى النصرانية الغربية، أصبح العهد القديم مرجعية مقدسة فى هذه النصرانية - وخاصة البروتستانتية منها - .. وأصبحت هذه المسيحية الغربية - فى جملتها - «مسيحية - صهيونية»، تؤمن بأن:

١ - اليهود هم شعب الله المختار.. ليس فى التاريخ القديم فقط - كما هو الحال عند الكنيسة الأرثوذكسية - وإنما لا يزالون هم شعب الله المختار..

٢ - وبأن الميثاق الإلهى الرابط بين اليهود والأرض المقدسة قائم أبدا.

٣ - وبأن عودة المسيح ليحكم الأرض ألف سنة سعيدة - رؤيا العودة وأسطورة الألفية - مشروطة بعودة اليهود إلى فلسطين، وإقامة الدولة الصهيونية، وإحلال اليهود محل الفلسطينيين، وبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.

ومنذ ذلك التاريخ غدت «المسيحية الصهيونية» عقيدة لكنائس غربية كثيرة، وموجهة لدول ومؤسسات وقيادات، تضفى القداسة على شعب الله المختار - اليهود -

وتتخذهم سبيلا لإقامة الدولة الخادمة للمشروع الإمبريالى الغربى فى قلب العالم الإسلامى، والتى يفتح قيامها الباب لعودة المسيح، وتحقيق الرؤى والأساطير المسيحية الصهيونية . . .

وانطلاقا من هذا التطور «العقدى ـ والسياسى»، تحول الكيان الصهيونى ـ الذى أقيم على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨م ـ إلى ما هو أكثر من «دولة» من دول العالم . . تحول إلى «تجلٍّ إلهى» وتحقيق «لنبوءة توراتية مقدسة»، ومن ثم أصبحت «عصمة شعب الله المختار» عقيدة موجهة لسياسة المشروع الإمبريالى الغربى، تجعل اليهود ودولتهم «كيانًا معصومًا» من أن تطبق عليه القوانين الدولية والإرادات البشرية . . ولا تطبق عليه إلا معايير التوراة ـ بنصوصها العنصرية ـ فهو فعال لما يريد، ولا يُسأل عما يفعل ـ ككل معصوم ـ . بل لقد أصبح النقد ـ مجرد النقد ـ لسياسات وممارسات هذا الكيان ـ الدموية ـ جريمة تتسابق الدول الغربية لمحاكمة مقترفيها ! ! . .

لقد أصبح «الفيتو» الأمريكى ـ فى مجلس الأمن ـ هو حارس «العصمة لشعب الله المختار» وكيانه الصهيونى على أرض فلسطين . . وغدت تصريحات زعماء اليمين الدينى . . وقساوسة المسيحية الصهيونية عن أن إسرائيل كيان دينى، وتجلٍّ إلهى، ونبوءة توراتية مقدسة ومعصومة من أن تعامل كمجرد دولة، تطبق عليها القوانين البشرية ـ ومنها القوانين والقرارات الدولية ـ حتى لو صدرت عن المؤسسات الدولية ـ أصبح ذلك أمرًا مقررًا وشائعًا ومرعيًا ومطبقًا فى التعامل مع الكيان الصهيونى القائم على أرض فلسطين . . فشعب الله المختار ـ كما قالت أسفار العهد القديم ـ «شعب مقدس . . دون جميع الشعوب . . وفوق جميع الشعوب» . . ولديه تفويض «إلهى» بأن يأكل كل الشعوب أكلا، وأن يمحو ذكرى أعدائه ـ العرب والمسلمين ـ من تحت السماء، كما حدث للعماليق ! . .

وإذا كنا قد فصلنا القول فى هذه القضية بكتابنا [فى فقه الصراع على القدس وفلسطين][٢٤]، فإننا نكتفى ـ هنا ـ بهذه «الإعلانات» المفصحة عن هذه العقيدة السائدة الحاكمة فى دول ومؤسسات الصليبية الغربية ـ والأمريكية منها على وجه الخصوص ـ :

* فالرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» يخطب أمام إحدى المنظمات اليهودية

الأمريكية ـ فى العاشر من سپتمبر سنة ١٩٦٨م ـ أى عقب انتصار إسرائيل فى حرب «الأيام الستة» ـ فيقول لهم :

«إن لأكثركم، إن لم يكن لجميعكم، روابط عميقة مع أرض ومع شعب إسرائيل، كما هو الأمر بالنسبة إلىّ؛ ذلك لأن إيمانى المسيحى انطلق من إيمانكم. إن القصص التوراتية محبوكة مع ذكريات طفولتى»(٢٥).

* أما الرئيس الأمريكى «چيمى كارتر» فإنه يضع كل النقاط على جميع الحروف عندما يعلن ـ فى خطابه أول مايو سنة ١٩٧٨م ـ :

«إن العودة إلى أرض التوراة التى أخرج منها اليهود منذ مئات السنين، وإن إقامة الأمة الإسرائيلية فى أرضها هو تحقيق لنبوءة توراتية، وهى تشكل جوهر هذه النبوءة»(٢٦).

* أما الرئيس «رونالد ريجان»، فإنه يعلن عن أن نبوءات العهد القديم هى التى ترسم له سياسته فى الصراعات الدولية، وتسيطر على مشاعره «إزاء إسرائيل، فيقول ـ سنة ١٩٨٤م ـ فى حديث مع صحيفة «واشنطن بوست»» :

«إننى أعود إلى النبوءات القديمة المذكورة فى العهد القديم، وإلى المؤشرات حول «هرمجدون» ـ المعركة الأسطورية التى ستعقب حشر اليهود فى فلسطين.. وبناء الهيكل.. والتى سيباد فيها ملايين البشر، ليعود المسيح من جديد ـ فأتساءل بينى وبين نفسى: ما إذا كنا الجيل الذى سيرى تحقق هذه النبوءات.. إن هذه النبوءات تصف بالتأكيد ما نمر به الآن»(٢٧).

* أما قساوسة اليمين الدينى والمسيحية الصهيونية، فإنهم يعلنون ـ بلسان رئيس التحالف المسيحى، المسيطر على الكونجرس الأمريكى، والمتحكم فى معركة الرئاسة الأمريكية، القس «بات روبرتسون»» :

«إن هذه الأرض ـ أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات ـ هى أرض الله، وإن لله كلمات قوية تجلب الغضب على من يقسم أرضه»!(٢٨).

* ثم يأتى القس «كلارنس واجنر» ليعلنها صريحة: إن إسرائيل هى كيان إلهى

مقدس، لا تطبق عليها القوانين البشرية؛ لأنها قانون توراتى، لشعب الله المقدس والمختار والمعصوم، فيقول ـ عن السياسات والمفاوضات والاتفاقات البشرية حول الصراع العربى الصهيونى ـ:

«علينا أن نشجع الآخرين على فهم الخطط الإلهية وليس الخطط التى هى من صنع الإنسان فى الأمم المتحدة، أو حتى فى الولايات المتحدة، أو الاتحاد الأوروبى، أو فى أوسلو أو فى واى ريفر إلخ. إن الله بعيد عن أى مخطط يعرض مدينة القدس للصراع، بما فى ذلك منطقة جبل الهيكل وجبل الزيتون ـ حيث المسجد الأقصى ـ وهو ـ الله ـ أبعد ما يكون عن إعطاء القدس للعالم الإسلامى، إن المسيح لن يعود إلى مدينة إسلامية تدعى القدس، ولكنه سيعود إلى مدينة يهودية موحدة تدعى (جروزا لم). .»[٢٩].

فشعب الله المختار.. المقدس فوق جميع الشعوب، ودون جميع الشعوب، له وحده هذه الأرض ـ أرض الله ـ والخطط الحاكمة لأفعال هذا الشعب المقدس هى «الخطط الإلهية»، وليست خطط الأمم المتحدة ولا غيرها من «الخطط التى هى من صنع الإنسان»!!..

***

تلك هى النزعة العنصرية الدموية «العقيدة شعب الله المختار».. كما تجلت فى نصوص العهد القديم.. والتلمود.. والسياسة والثقافة التى تحكم الكيان الصهيونى على أرض فلسطين..

وتلك هى الأبعاد التى اتخذتها هذه العقيدة فى المسيحية الصهيونية الغربية.. وفى الفكر الحاكم والموجه لمشروع الهيمنة الغربية.. أشرنا إلى معالمها منذ تبلورها فى النصوص التى كتبها أحبار اليهود إبان حقبة السبى البابلى [٧٢١ ق.م]، وحتى هذه اللحظات..

فأين هذه «العنصرية الدموية» ـ الخرافية ـ من النزعة الإنسانية التى تجلت فيها العدالة الإلهية، التى حكمت المنهاج الإسلامى فى تحديد الصفات والشروط والمعايير الحاكمة لخيرية الأمة الإسلامية؟؟..

وصدق الله العظيم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والحمد لله على نعمة الإسلام.. وإنسانية الإسلام.. وعدالة المنهاج الإسلامى فى العلاقات بين الأمم والشعوب والديانات والحضارات.

الهوامش:

(١) الراغب الأصفهانى : [المفردات فى غريب القرآن] ـ مصطلح «الأمة» ـ طبعة دار التحرير ـ القاهرة، سنة ١٩٩١م.

(٢) المصدر السابق ـ مصطلح «خير».

(٣) المصدر السابق ـ مصطلح «المعروف» و«المنكر».

(٤) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ ٥ ص ٥٤ ـ ٥٥ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق ـ القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

(٥) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٥٤ .

(٦) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٥٩ ـ ٦٥ .

(٧) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٨) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٥٧ ـ ٥٩ .

(٩) إسرائيل شاحاك [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ص ٧٧ ترجمة : حسن خضر. طبعة دار سينا ـ القاهرة، سنة ١٩٩٤م.

(١٠) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ـ من عهد رسول الله ﷺ إلى نصارى نجران ـ ص ١٢٦ ـ تحقيق : د. محمد حميد الله الحيدر آبادى. طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٦م.

(١١) [نهج البلاغة] ص ٣٣٤ ـ بشرح الإمام محمد عبده ـ تحقيق : محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة.

(١٢) [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ص ١٦٨ .

(١٣) المرجع السابق. ص ٣٦، ٣٧، ٤٠ .

(١٤) المرجع السابق. ص ١٦٨ ـ ١٧١، ٣٤ .

(١٥) المرجع السابق. ص ١٥٨ .

(١٦) المرجع السابق. ص ١٦١ .

(١٧) المرجع السابق. ص ١٦٢ .

(١٨) المرجع السابق. ص ١٦٠ ، ١٧٣ .

(١٩) المرجع السابق. ص ١٦٢ .

(٢٠) المرجع السابق. ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٢١) المرجع السابق. ص ١٣٦ ـ ١٤٠ .

(٢٢) صحيفة «الشرق الأوسط» ـ لندن ـ في ٦/ ٣/ ٢٠٠٥م ـ رسالة الصحفي «صالح النعيمي» ـ من غزة .

(٢٣) [الأعمال الكاملة] جـ ٥ ص ٤٣ . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٢م .

(٢٤) د. محمد عمارة [في فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة دار الشروق ـ القاهرة ، ٢٠٠٥م .

(٢٥) محمد السماك [الدين في القرار الأمريكي] ص ٤١ . طبعة بيروت ، سنة ١٤٢٤هـ ـ سنة ٢٠٠٣م .

(٢٦) المرجع السابق. ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٢٧) المرجع السابق. ص ٤٣ .

(٢٨) المرجع السابق. ص ٧٦ .

(٢٩) المرجع السابق. ص ٧٦ .

المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم**

* **العهد القديم**

* **إسرائيل شاحاك**: [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ترجمة: حسن خضر. طبعة دار سينا ـ القاهرة، سنة ١٩٩٤م.

* **الراغب الأصفهانى**: [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير ـ القاهرة، سنة ١٩٩١م.

* **صالح النعيمى**: صحيفة [الشرق الأوسط] ـ لندن ـ فى ٦/ ٣/ ٢٠٠٥م.

* **على بن أبى طالب**: [نهج البلاغة] ـ بشرح الإمام محمد عبده ـ تحقيق: محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

* **د. محمد حميد الله ـ محقق ـ**: [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٦م.

* **محمد السماك**: [الدين فى القرار الأمريكى] طبعة دار النفائس ـ بيروت، سنة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

* **محمد عبده ـ الأستاذ الإمام ـ**: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق ـ القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

* **د. محمد عمارة**: [فى فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة دار الشروق ـ القاهرة، سنة ٢٠٠٥م.

* * *

عوامل تفوق الإسلام

«شهادة غربية»

شهادة العلامة مونتجومرى وات

وهذه الشهادة الغربية، المنصفة للإسلام، وحضارته، وثقافته.. بل والمؤكدة على صدقه..وعلى رقيه وتفوقه على الديانات الأخرى..هى لواحد من أعمدة الاستشراق المعاصر، وأعمدة الثقافة الغربية المعاصرة:المؤرخ والباحث الإنجليزى،النصرانى الأنجليكانى، مونتجومرى وات ـ Mont gomery, Watt »..

وهو محاضر فى اللغة العربية وآدابها.. ومتخصص فى الدراسات الإسلامية الأكاديمية..وفى علم الكلام الإسلامى.. وفى التاريخ الإسلامى..وعميد لقسم الدراسات العربية فى جامعة(أدنبرا).. وحاصل على الدكتوراه فى علم الكلام الإسلامى ـ بموضوع الكسب والجبر والاختيار..وصاحب المؤلفات العديدة. ومنها:[عوامل انتشار الإسلام] سنة ١٩٥٥م.. و[محمد فى مكة] سنة ١٩٥٨م..و[محمد فى المدينة]..و[الإسلام والجماعة الموحدة] سنة ١٩٦١م..و[محمد:النبى ورجل الدولة]..و[الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] سنة ١٩٦٩م..إلخ..إلخ..

وهذه الشهادة المنصفة للإسلام وحضارته وثقافته.. والمؤكدة على تفوق صدق الوحى القرآنى، قد جاءت ثمرة لدراسات « مونتجومرى وات » للإسلام ـ مقارنا بالديانات الأخرى ـ دراسات استمرت لأكثر من ثلاثين عاما ـ بدأت سنة ١٩٣٧م ـ مع معايشة للواقع الإسلامى.. وحوارات مع العديد من علماء الإسلام.. حتى جاءت هذه الشهادة ثمرة لإبحار هذا العالم المرموق فى بحار الديانات والحضارات والثقافات، فى تاريخها المديد، وواقعها المعاصر.. حتى لقد جاءت هذه الشهادة ـ كما يقول هذا العالم المرموق: ثمرة لمراحل من التقدم والارتقاء نحو « نظرة حيادية لا تنحاز لأى من الدينين ـ المسيحية والإسلام ـ رغم مواصلة العيش على أرض الواقع المسيحى، ممارسا لما تفرضه المسيحية على من يتدين بها ».. مع ما استلزمه هذا الارتقاء وهذه الحيادية من معاناة وتوتر داخلى!..

• وهو، فى هذه الشهادة، يتحدث عن:

١ ـ الأهداف المتوخاة من كتابته عن الإسلام، مقارنا بالنصرانية..

٢ ـ ويقدم شهادة عالم نصرانى غربى على صدق الوحى الإلهى كما تجسد فى القرآن الكريم. وعلى تميز الوحى فى القرآن عنه فى التوراة والإنجيل.. وعلى صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ..

٣ ـ كما يشهد هذا العالم النصرانى الغربى على ثراء القرآن.. وجدته..وأصالته.. وعلى أن جمعه إنما هو جمع إلهى.. وعلى الثقة بالنص القرآنى المتداول بين الناس.. وعلى أن تعدد القراءات لبعض أحرف القرآن لم يؤثر فى وحدة معانى النص القرآنى.. وعلى مركزية القرآن ومحوريته فى الثقافة الإسلامية..

٤ ـ كما يشهد للغة العربية ـ لغة القرآن.. ولسان الشريعة الإسلامية ـ باعتبارها لغة حضارة وثقافة راقية ومتميزة..

٥ ـ ويشهد لعالمية الإسلام.. و تفوقه..ورقيه.. وبأنه منهاج شامل للحياة..

٦ ـ ويشهد ـ كذلك ـ على أن انتشار الإسلام، ووراثته للمسيحية ـ فى الشرق ـ إنما يرجع إلى الضعف الذاتى الكامن فى تلك المسيحية، وإلى فشلها فى تلبية احتياجات الإيمان الدينى الذى تطمئن به القلوب.. وذلك على العكس من التوحيد الإسلامى، الذى حقق تفوقا لا يجارى فى هذا الميدان.. وعلى استمرارية هذا الفشل ـ المسيحى ـ فى عصرنا الراهن، والذى يتخذ شكل تراجع المسيحية وتقدم الإسلام..

٧ ـ كما يشهد على مكانة الإسلام، وحظانه المتميز فى، دين المستقبل... وتفرده ـ دون الأديان الأخرى ـ فى حل مشكلة العنصرية..

٨ ـ وعلى نزعة التعصب فى الحضارة الغربية.. وتمركزها حول ذاتها..

٩ ـ وعلى خطر النظرة العلمانية على القيم والأخلاق..

١٠ ـ كما يحدد ـ فى شهادته هذه ـ شروط الحوار المثمر بين أهل الأديان..يشهد، مونتجومرى وات، على ذلك كله، فيقول:

- ١ -

الأهـداف

«إن هدفي الأساسي هو :

● أن أقدم الإسلام بأفضل شكل مبسط للقارئ الأوروبي والأمريكي الذى ينظر للأمور بمنظور ديني أو بمنظور علماني . .

وإني أقصد بذلك أن أبطل مفعول الآثار الباقية من دعايات حروب العصور الوسطى [الحروب الصليبية] . كما أني حاولت أن أجعل القارئ يتحقق ، على نحو أفضل من ذى قبل ، من أهمية الإسلام ، التي تجلت طوال مئات السنين التي أعقبت حروب العصور الوسطى هذه .

● والهدف الثاني : هو أن أوضح للمسلمين أن الدارسين الغربيين ليسوا بالضرورة معادين للإسلام كدين ، بل إنه من الممكن أن نجمع بين هذه الاتجاهات . .»[1] .

***

ـ ٢ ـ

الوحى القرآنى

«إن جزءًا من أهداف هذه الدراسة هو تعريف المسيحيين بمفهوم الإسلام للوحى، وتعريف الذين لم يدركوا منهم حتى الآن أن الوحى الإسلامى مسألة لا بد من تناولها بجدية . .

إن القرآن الكريم ليس بأى حال من الأحوال كلام محمد، ولا هو نتاج تفكيره، إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمدًا ليس أكثر من «رسول» اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة، أولاً، ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربى مبين، وهناك إشارات فى القرآن إلى أنه موجه للجنس البشرى قاطبة، وقد تأكد ذلك عمليًا بانتشار الإسلام فى العالم كله، وقبله بشرٌ من كل الأجناس تقريبًا .

وهذه الفكرة نفسها عن«الوحى» اعتنقها مسيحيون كثيرون عبر القرون، فاعتبروا كلمات الكتاب المقدس هى كلمات الله نفسه، إلا أنهم ـ عادة ـ لا يفترضون أن كلمات الله قد جلبها مصدر خارجى ممثل فى ملك أو ملائكة يملونها على كُتاب الأناجيل، وإنما يُلقى فى روع هؤلاء الكتّاب أن ما يكتبونه إنما هو كلام الله حقًا . فالأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم يعلنون دون تردد «هكذا يقول الرب . . » لذا، فلا بد أنهم كانوا يعتقدون أن ما ينطقون به من كلمات إنما هو بمعنى من المعانى كلمات الله حقًا . . .

إننى أعتقد أن القرآن بمعنى من المعانى صادر عن الله، وبالتالى فهو وحى . . .

وكما رأى المسيحيون أن تاريخهم شهد «حوارًا» بين المسيحية وبين العلمانيين المناهضين للدين، فإن هذا يعنى أنه من المستحيل الاستمرار فى الأداء بوجود «وحى»

أو«رسالة»أو«ديانة» مسيحية دون الاعتراف «بشىء» من الصحة«للوحى» أو«الرسالة» أو«الديانة» الإسلامية . .

والمنهج الذى أتخذه فى هذه الدراسة ، هو أن أصل بقدر ما أستطيع إلى مستوى الحقيقة الخالصة ، ولن أتعرض للقرآن باعتباره من إنتاج محمد ، وإنما باعتباره وحيًا . .

* * *

كيف وصلت هذه الكلمات التى كونت التجربة الأولى إلى وعى محمد أو شعوره؟

إننا نؤمن بصدقه وإخلاصه عندما يقول إنها ليست نتيجة أى تفكير واع منه .

إن التجربة النبوية مع الوحى يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلى :

١ـ محمد يشعر ، وهو فى حالة وعى ، أن هناك كلمات بعينها تلقى فى روعه أو تحضر فى قلبه أو عقله الواعى .

٢ـ وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن قط نتيجة أى تفكير واعٍ من جانبه .

٣ـ أنه يعتقد أن هذه الكلمات ألقيت فى روعه (عقله) من قبل«مندوب» أو«مبعوث» خارجى يتحدث إليه كملَك .

٤ـ أنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله ـ تعالى .

هذه الملامح الأربعة الرئيسية موجودة فى كل حالات الوحى كما وردت فى القرآن الكريم . .

إن الكلمات المنزلة على محمد كانت تحضر فى عقله الواعى ، وإن تفكيره الشخصى لم يكن له دور فى ذلك ، وإن يقينًا جازمًا كان يتملك فؤاده أن هذه الكلمات هى من الله . . .

لقد وجد محمد الكلمات أو المحتوى الشفهى حاضرًا فى وعيه ، فلما تمت كتابته شكّل النص القرآنى الذى بين أيدينا . وكان محمد واعيًا تمامًا أنه لا دخل لتفكيره الواعى فى هذه الرسالة القرآنية التى تصله ، وبتعبير آخر فقد كان يعتقد أنه يمكنه أن يميز (أو يفصل) بين هذه الرسالة القرآنية وبين تفكيره الواعى . . الأمر الذى يعنى أن

القرآن الكريم لم يكن ـ بأية حال من الأحوال ـ نتاج تفكير محمد. وهذا يعنى أنه سيكون من الخطأ أن نقول، فى مجال حديثنا عن آيات القرآن الكريم: إن محمدا قال. . .

إلا أن بعض الدارسين الأوروبيين فى الماضى تحدثوا كما لو أن محمداً قد فعل ذلك، وهذه الطريقة فى الحديث تدعو للأسف، فهى طريقة غير علمية، لم تضع فى اعتبارها الملامح الأساسية الظاهرة لتجربة محمد فى تلقى الوحى. .

لكن فى مجتمعنا المعاصر، الذى يسوده جو التداخل بين الأديان، يحسن بغير المسلمين أن يتجنبوا الحديث والتفكير على هذا النحو. .

إن القرآن لا ينبغى النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية. . .

وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التى أوحيت إليه، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى؛ لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله، وما كان لبشر أن يتحدى الله، وليس من شك فى أنه ليس من قبيل الصدفة أيضًا أن كلمة (آية) تعنى علامة على القدرة الإلهية وتعنى أيضًا فقرة من الوحى. .

* * *

ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم فى حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التى ألقاها الله إليهم عن طريق محمد، تمامًا كما فعل «ورقة بن نوفل» [١٢ق. هـ ٦١١م] (الذى أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد). ومن هنا يمكن أن نقول: إن إشارة القرآن إلى «تحريف» لحق اليهودية والمسيحية ـ بصورتهما الموجودة أيامه ـ قول صحيح. . »[٢].

* * *

ـ ٣ ـ

ثراء القرآن.. وجدته.. وأصالته.. وحفظه.. ومحوريته في الثقافة الإسلامية

«ثمة عدة نقاط تُعد بمثابة عناصر أصالة وتميز فى القرآن؛ نظرًا لأن فكرة الوحى وتلقى الرسالة قد تطورت فى القرآن . .

إنه إذا اكتشفنا شيئًا من عدم التناسق المنطقى Inconsistency فى القرآن، فهذا دليل على ثرائه وخصوبته، ودليل على سمو مثمر (تجاوز) يعلو فوق الفكر المجرد العاقر، أو غير المجدى Barren Conceptual Thought ومن هنا قد نجد (معنيين) أو (تقريرين) مختلفين Incositent لأن أحدهما فقط لا يعبر عن الحقيقة بشكل تام . .

لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (موضة) تقديم القرآن للقارئ الأوروبى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية، بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب الصليبية عندما كان على أوروبا الغربية ـ التى كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام ـ أن تقوّى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام.

وإذا نظرنا للأمور بعيدة عن سياقها التاريخى، حتى بصدد مجرد المقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل، لوصلنا إلى نتائج خاطئة، وعلى أية حال، فافتراض أن محمدًا قام بدعوته فى فراغ، أى دون مراعاة لظروف العالم وقتها، فرض غير علمى . عندما ننظر للقرآن والعهدين (القديم والجديد) فى السياق التاريخى، نجد أن الأمور تسير فى اتجاه آخر، أو تصل بنا إلى نتائج أخرى، أو تتخذ ملامح مختلفة، فنبى العهد القديم ـ هو

بدوره - لم يحدثنا من فراغ عقلى، إنما راعى الحياة العقلية والثقافية السائدة، وبالمقياس نفسه يجب أن ننظر إلى محمد ودعوته، فالرسالة الأصيلة والجديدة لكل نبى هى تلك الرسالة التى تتواءم مع كثير من الأفكار، وتعبر عن نفسها باستخدام مصطلح هذه الأفكار السائدة، وتتعامل مع القضايا المعاصرة لها . .

وهكذا يظهر القرآن أصالته، ولو لم يكن إلا هذه الاستجابة الفعالة لمتطلبات موجودة بالفعل لكفاه دليلاً على الأصالة . .

لدينا إذن أرضية ثابتة نقف عليها باطمئنان، أن القرآن لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية ومسيحية، وإنما كان به إضافات تتسم بالجدة والأصالة . .

يؤكد القرآن الكريم أن الرسالة التى حملها محمد لشعبه كانت هى نفسها الرسالة التى حملها الأنبياء الآخرون لشعوبهم، وعلى أية حال، فإن هذا التماثل ينطبق على أساسيات الرسالة، كالإيمان بالله واليوم الآخر وبالأنبياء والملائكة والكتب المنزلة . . وحتى الأفكار التى اشترك فيها الإسلام مع اليهودية والمسيحية، فإنها قد اتخذت شكلاً عربيًا واضحًا . .

إن القرآن كان يمهد لانتقال مرن ناعم من الصور الراقية لأديان موجودة بالفعل لدين جديد(الإسلام) . .

على أن تفحص العلاقة بين القرآن والبيئة المكية أو العربية عامة، يوضح لنا بجلاء أن رسالة الإسلام كانت ملائمة تمامًا للبشر الذين ظهر محمد بين ظهرانيهم ولم تكن مجرد عقائد سابقة(يهودية أو مسيحية) . .

وثمة ما يؤكد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم فى مرحلة نقائه الأولى . . إن القرآن يقرر لنا أن الإسلام هو دين مطابق لدين إبراهيم الخالص، وهو قول يستحق النظر إليه بجدية . .

* * *

إن كلمة (جمع) - [فى الحديث عن جمع القرآن] - قد استخدمت فى آيات قرآنية مهمة ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : ١٦ - ١٩].

ومن الممكن أن يكون التفسير الطبيعي لهذه الآيات أن محمدا ما دام يتبع تلاوة من يتلو عليه (جبريل) فإن الله متكفل بجمع الآيات المتفرقة أو التي أوحى بها في أوقات مختلفة ليجعلها في سياق واحد.

وإذا لم يكن محمد هو الذى رتب القرآن بناء على وحى نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور زيدا - [زيد بن ثابت [١١ق. هـ - ٤٥هـ - ٦١١ - ٦٦٥م] - أو أى مسلم آخر يقوم بهذا العمل. ومن هنا، فإن كثيرا من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه. . إن القرآن كان يسجل فور نزوله، وقد جمع رسميًا حوالى سنة ٦٥٠م.

ورغم كثرة القراءات، فإن أيا منها لم يؤد إلى جنوح معانى القرآن بحيث تجعلها بعيدة عن المعانى المفهومة من القراءات الأخرى.

والشىء نفسه يمكن أن يقال بشأن المصاحف السابقة على مصحف عثمان، فلم تكن الخلافات بينها وبين مصحف عثمان ذات شأن، بحيث تحدث ردود أفعال مختلفة فى المجتمع الإسلامى. .

* * *

ومهما كان الطريق الذى دخلت عن طريقه الثقافة اليونانية فإن المجتمع الإسلامى لم يقبل منها إلا ما هو مناسب وموائم لنسيج الحياة الإسلامية وللنظرة العقلية للعالم والكون التى يقرها القرآن. وبمرور الوقت تحقق أن حياة المجتمع الإسلامى بشكل عام قائمة على استمرار القرآن وتبوئه مكان المركز أو القطب أو المحور. .

ولقد أدت سهولة المواصلات وتطور الاتصالات السلكية واللاسلكية إلى أن أصبح إسلام المناطق البعيدة عن المركز متوافقًا ومتوائما مع إسلام المناطق المركزية أو الوسطى. .»[٣].

* * *

ـ ٤ ـ

العربية: لغة حضارة وثقافة متميزة

«إن اللغة العربية ليست لغة صحراوية بالمعنى الضيق للكلمة، فالروايات التى لا تخلو من الحقائق تخبرنا عن حياة زراعية باكرة قبل أن تشرع المنطقة فى التصحر، كما تخبرنا عن انهيار نظام الرى فى اليمن وهجرة قبائل مختلفة من هذا اليمن الذى كان سعيداً . .

وهذه التجارب لا بد أن نفترض أنها تركت آثاراً فى مضامين الكلمات المختلفة، كما أن كثيراً من العرب ارتبطوا بالأعمال التجارية، فقد كان تجار مكة الكبار يتحكمون فى القوافل التى كانت تتجه بانتظام إلى الشام وإلى اليمن، وارتبطت القوافل المتجهة إلى اليمن بطرق التجارة المتجهة إلى جزر الهند والمتجهة إلى شرق أفريقيا، وقد تركت هذه التجارة أيضاً بصماتها على اللغة العربية . .

وعلى هذا، فاللغة العربية قد ارتبطت بوسط ثقافى خاص يمتاز بكثير من الملامح التى تميزه عن الأوساط الثقافية الأخرى. وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى، خاصة فى عالم متداخل الأديان، إنها تعنى أنه لا وجود لإنسان معيارى Standard Man أى أن هناك أنماطا كثيرة معيارية، يمثل كل نمط منها منطقة ثقافية حضارية محددة . .»[(٤)] .

***

ـ ٥ ـ

عالمية الإسلام.. وتفوقه.. ورقيه

«إن الإشارات القرآنية «الخاصة» أو «اللصيقة» بالعرب لا تنفى أنه عالمى النزعة، أو ذو طبيعة عالمية، فالقرآن يخاطب البشر عامة، وليس الإنسان العربى فى الوسط الثقافى أو الحضارى العربى فحسب. . وتلك حجة قوية؛ لأن الإسلام قد انتشر بالفعل انتشارًا واسعًا خارج نطاق الوسط الثقافى العربى بمعناه الضيق أو الأصلى، فاعتنقته أجناس مختلفة من أوساط ثقافية مختلفة. .

إن رسالة الإسلام، التى وُجهت فى البداية لأهل مكة والمدينة، كانت تحمل فى طياتها بذور العالمية، أو أنها كانت منذ البداية أو منذ مضمونها الأول ذات أبعاد عالمية. .

إن القرآن يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته؛ لأنه يتناول القضايا الإنسانية. .

ولقد كان إحكام النظرة العالمية للإسلام (كونه دينًا عالمى النزعة) مما جعله يستوعب تراث المسيحية الباقى بين شعوب الشرق الأوسط التى كانت مسيحية، ومن هنا فقد أصبح المفكرون المسلمون هم حملة الثقافة العقلية لكل المنطقة. .».

❊ ❊ ❊

«لقد حاولت الحركة التبشيرية ـ [المسيحية] ـ الحديثة أن تخترق مناطق العالم الثقافية التى تسيطر عليها الأديان الأرقى، وقد رغب سكان هذه المناطق فى التكنولوچيا الأوروبية، وفى الجوانب المادية من الحضارة الأوروبية، لكنهم ـ فى غالبهم ـ فى الوقت نفسه كانوا مرتبطين ارتباطًا عميقًا بدينهم الذى كانوا يشعرون أنه أرقى من دين الأوروبيين. . ومن هنا فقد كان نجاح الحركة التبشيرية المسيحية فى هذه المناطق محدودًا

تمامًا، فمعظم مَن تركوا دينهم فى هذه المناطق ودخلوا دين الأوروبيين لم يكونوا أصلاء، ولم يكونوا من صلب التكوين الثقافى الأصلى لبلادهم، وإنما كانوا من جماعات تعيش على هامش ثقافة بلادها، أو كانت لا تحظى بوضع اجتماعى مريح فى نطاق هذه الثقافة السائدة . .

وهناك اهتمام فى الإحصاءات الإرسالية بعدد المتحولين للمسيحية، وبزيادة الأعضاء المنتمين للكنائس المحلية . والمسيحية فى هذا الصدد تختلف إلى حد التناقض مع الإسلام، فرغم أنه دين دعوة كالمسيحية، إلا أنه أقل تباهيا بالداخلين فيه، فالمجتمع الإنسانى يجذب أناسًا إلى الإسلام لمجرد قبولهم كإخوة «فى الإسلام»، وهذا الاتجاه لا يتخذه إلا أصحاب دين واثقون من دينهم ثقة عظيمة، ثقة لا تجعلهم يؤكدونها بالإحصاءات، بينما نجد أن المسيحيين الغربيين يمرون بأزمة ثقة فى النفس . . » .

❊ ❊ ❊

«إن عبارة «إرادة الله أو مشيئته ـ The Will Of God » موجودة فى الديانتين ـ [المسيحية وَالإسلام] ـ لكن ارتباطها بحياة المسيحيين والمسلمين مختلف، فبالنسبة للمسيحى عادة ما تعنى إرادة الله المفهوم المعنوى للإرادة The Moral Will كما تجلت فى الوصايا العشر Command Ments أو تتجلى فى الفطرة السليمة للفرد (الحدس أو البديهة) (فإرادة الله بالنسبة لى فيما يتعلق بعمل) .

بينما نجد أن المسلم يطبقها على كل ما يحدث، فكل ما يحدث بإرادة الله ومشيئته . ومرة أخرى نجد أن الدين بالنسبة للمسلم يغطى تقريبًا كل جوانب الحياة، بينما هو بالنسبة للمَسيحى الأوروبى العادى لا يغطى إلا جانبا يسيرًا منها، مع أن كلمة «الدين» العربية هى المقابل لكلمة Religio الإنجليزية، إلا أن المفهومين مختلفان كما رأينا . لا يمكننا إذن عقد مقارنة، رغم أن الألفاظ واحدة، ومن هنا فليس ثمة معيار أو مقياس Criterion بسيط للفصل بين ما هو حقيقى صادق، وما هو زائف خادع . .

❊ ❊ ❊

لقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقل عن الدينين الأقدمين (اليهودية والمسيحية)، ونقول عن حق : «إنه بالفعل كان يفوقهما، أو أنه فعلاً كان متفوقًا عليهما، أو أرقى منهما . . »[٥] .

-٦-

فشل المسيحية فى الشرق الأوسط

«إن الجانب المهم فى إنجاز الإسلام فى الشرق الأوسط هو أنه حل محل المسيحية التى كانت محور الحياة الثقافية فى هذه المنطقة. مناطق شاسعة كان سكانها فى غالبهم يشكلون قلب العالم المسيحى، فأصبحوا يشكلون قلب العالم الإسلامى. إنه من الضرورى أن نتمعن فى أسباب هذا التغير بعناية.

لقد تحدثنا كثيراً - فى هذه الدراسة - عن قوة الإسلام. و إذا كان علينا أن نحذو حذو «توينبى - Arnold Toynbee» [١٨٨٩ - ١٩٧٥م] - على أية حال - لقلنا إن السبب الجوهرى هو الضعف الداخلى للمسيحية (أو ضعف المسيحية من الداخل، أو كون بذور الضعف فى قلب المسيحية).

يتعين علينا أن نبحث عن جذور فشل المسيحية بمعالجة موضوع المسيحيين الشرقيين.. إن كثيراً من المسيحيين الشرقيين، خاصة اللاهوتيين منهم، استخدموا أيضًا اليونانية فى الكتابات الجادة، لكن طريقة تفكيرهم كانت بشكل أساسى بعقليتهم فى لغاتهم الأصلية (السريانية، القبطية، الأرمنية.. إلخ)..

وقد أدى الاختلاف فى العقليات إلى اختلاف فى الصيغ اللاهوتية فى قضايا مختلفة، وعندما كانت تطرح هذه القضايا اللاهوتية المختلف عليها أمام المجامع المسكونية (العالمية) كان (اليونانيون) يستبعدون المسيحيين الشرقيين (الناطقين باللغات آنفة الذكر) من حق التصويت. وبمرور الوقت وجد المسيحيون الشرقيون أنفسهم وقد اعتبرهم الآخرون هراطقة مخرفين، بل واعتبرتهم الإمبراطورية البيزنطية طريدى عدالة ومحرومين من حماية القانون..

وعندما تم طرد هذه الطوائف من الكنيسة المسيحية(للدولة البيزنطية) قامت هذه الطوائف بتأسيس عقائد تحاشت فيها الهرطقات الأكثر خطورة(ما اعتبره الآخرون هرطقات خطيرة)، التى اتهمهم مناوئوهم بها. ولم يكن هذا كافيًا لرأب الصدع بين الطوائف المسيحية، فقد تنامت لدى الأطراف المتنازعة الرغبة فى عدم التوحد، ومن هنا كان طرد المسيحيين الشرقيين من الكنيسة ومن المجامع المقدسة على أساس أنهم(هراطقة) أدى إلى قيام المسيحيين الشرقيين بتأسيس منظمات كنسية منفصلة، وأدى هذا إلى إضعاف المسيحيين الشرقيين، والجهاز الكنسى الرئيسى(للدولة البيزنطية) على السواء.. وهكذا تحولت الخلافات اللاهوتية إلى شعارات سياسية..

لذا فعندما فتح المسلمون سوريا ومصر رحب بهم السكان باعتبارهم محررين لهم من سطوة اليونانيين(البيزنطيين) الممقوتين.. وقد لخص «كريستوفر داوسون ـ Ghristopher Dawson» [١٨٦٧م ـ ١٩٠٠م] بعض هذه النقاط، بأسلوبه الموجز المفعم بالمعانى، عندما قال: «إن محمدًا كان هو إجابة الشرق على تحدى الإسكندر» [٣٥٦ـ٣٢٤ ق.م].. فقد كان محمد هو مؤسس الدولة الإسلامية التى سرعان ما اتسعت لتصبح دولة كبرى(إمبراطورية) أصبح لها ثقافتها الخاصة وحضارتها المتميزة فى مواجهة الهيلينستية بوجه عام.

لقد دخل الإسلام إذن فى منطقة لم تحقق فيها المسيحية نجاحًا، أو لنقل إنها فشلت بالفعل، فالبلاد التى كان يسيطر عليها المسيحيون الشرقيون فى وقت من الأوقات أصبحت الآن بلادًا إسلامية عميق إسلامها..

وعلى أية حال، ففى كل مكان تحول نسل المسيحيين الشرقيين إلى الإسلام، بل لقد تحول عدد كبير منهم أنفسهم، لا سلالاتهم فقط، ولا يمكن أن نعزو ذلك لمجرد الضغوط المادية والاجتماعية، كاعتبار المسيحيين فى الدولة الإسلامية مواطنين من الدرجة الثانية. ولن يفهم المسيحى فهمًا كاملاً ما حدث بالضبط إلا إذا أعد لتقبل حقيقة أن هنا ـ أى فى هذه المنطقة ـ كانت المسيحية فى وضع أقل (من الديانات الأخرى) أو بتعبير آخر، ربما كانت المسيحية فى هذه المنطقة تحظى بقبول أقل، ربما حتى من الناحية الروحية، أو على الأقل أنها نظرية مقبولة ظاهريًا أن المسيحيين الشرقيين غدوا غرباء عن المسيحية..

لذا فمن المقبول ظاهريًا أن نجد معظم المسيحيين الشرقيين قد تحولوا للإسلام؛ لأنهم وجدوا فيه تعبيرًا عن التوحيد أكثر ملاءمة لعقليتهم الواضحة أكثر مما وجدوا فى المسيحية . .

بل أكثر من هذا، إذ يمكن أن نقول إنه بينما فشلت المسيحية ـ على أساس من المفاهيم اليونانية ـ أن تقدم نفسها للعقول الشرقية، فإن الإسلام ـ على أساس من المفاهيم العربية ـ نجح فى إحراز بعض التقدم بتقديم الأفكار اليونانية .

إنها لحقيقة معروفة جيدًا أنه فيما بين القرنين التاسع والثانى عشر للميلاد قبل الوسط الثقافى والفكرى الإسلامى كثيرًا من الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية .

ومن نافلة القول أن نقول إن هناك الكثير من الثقافة اليونانية نبذه الإسلام تمامًا، ليس أقله «التراچيديا اليونانية»، والإنجازات الكبرى فى الخيال الشعرى، وهذا الإهمال «لا يمكن أن يكون مجالاً للتركيز لتوضيح الفارق بين العقليتين . . » .

* * *

«إن تأثير المسيحية الفعلى، أو تأثير جوهر العقلية المسيحية يبدو فى تناقص مستمر رغم محاولات التوسع التى تقوم بها الحركة التبشيرية، وفى الوقت نفسه وجدنا «صحوة» أو «انبعاثًا» أو «حركة نهضة» فى معظم أديان العالم الكبرى الأخرى «غير المسيحية»، بل وظهرت أيضًا أديان جديدة . وإذا رجعنا للإسلام وجدنا زيادة فى عدد معتنقيه فى نطاق منطقته الجغرافية، بل وظهرت حركات دعوة للإسلام فى أوروبا . . »[٦] .

* * *

- ٧ -

الإسلام هو الهيكل الأساسى لدين المستقبل

«فى المستقبل . . ستكون هناك حركة بطيئة ستتمخض فى النهاية عن ثقافة متجانسة للعالم أجمع . وفى مثل هذه الثقافة المتجانسة المنتشرة عبر العالم كله ستكون المقارنة الموضوعية بين الأديان أمرًا ممكنًا . .

إنه فى الحاضر والمستقبل المرئى، من الضرورى أن نعرف أن الأديان الكبرى لدى كل منها ما يتمم الآخر، فكل دين من هذه الأديان صحيح فى نطاق منطقة ثقافية خاصة، والأديان يكمل بعضها بعضا . .

وعلى المدى البعيد - بطبيعة الحال - من المتوقع أنه سيكون هناك دين واحد للعالم كله، مع وجود اختلافات داخل نطاق هذا الدين الواحد، ويمكن تشبيه هذه الفروق الداخلية بالمذاهب الأربعة لدى المسلمين من أهل السنة، فهم جميعًا مسلمون رغم اختلاف مذاهبهم . .

ومعظم المسيحيين يميلون إلى افتراض أن المسيحية ستكون هى دين العالم فى المستقبل . لكن هذا أبعد ما يكون عن أن يكون أمرًا مؤكدًا، ولنذكر عنصرًا واحدًا، فبعض الأمم المسيحية تعانى بشدة من العنصرية، والدين الذى لا يستطيع أن يحل مشكلة العنصرية بين أعضائه من المستبعد أن يكون قادرًا على تقديم حلول كثيرة مجدية لمشاكل العالم الأخرى .

ومن بين مزايا الإسلام تعميقه لمفهوم الأخوة، وعمق حججه . إلا أن الثقة بالنفس، مصحوبة بعمق الحجج وقوتها قد تتحول إلى «عيب» وليس ميزة، عندما تعمى عين الإنسان عن رؤية ما هو جدير بالتقدير لدى الآخرين، لذا فقد يجد الإسلام صعوبة فى إدراج قيم أخرى من أديان أخرى ليستوعبها ويجعلها جزءًا منه .

والإسلام - بالتأكيد - مناضل قوى، ومنافس عظيم الشأن، سيعمل على مد الدين الواحد - دين المستقبل - بهيكله الأساسى . .»[٧]

- ٨ -

تعصب المركزية الأوروبية

«إن الحضارة الأوروبية (أو العالم المسيحى) كانت، ولفترة طويلة، تتصرف كما لو أنها الوحيدة التى تستحق الاهتمام، واعتبر الأوروبيون أنفسهم هم وحدهم - من بين كل البشر - الجديرين بالاعتبار (ينظر الكُتاب المعاصرون لحضارة أمريكا الشمالية باعتبارها امتداداً للحضارة الأوروبية، ويرى آخرون ضرورة النظر إليها كحضارة مستقلة).

وفى القرن التاسع عشر كانت الثقافة الأوروبية حضارة، وكلما تقدمت تكنولوجيًا وسياسيًا، أصبحت مناطق أخرى من العالم متحضرة، ونتيجة لهذه الفكرة أهمل بالفعل تاريخ الحضارات العالمية الكبرى قبل اتصالها بأوروبا.

وعاملت الحضارة الأوروبية أديان العالم المعاملة نفسها، فكانت تنظر إلى التطور الدينى الرئيسى للجنس البشرى من خلال نظرها للمسيحية، وإن كانت قد أعطت مساحة قليلة من الاهتمام لليهودية، وفيما عدا ذلك كان الأوروبيون ينظرون إليه باعتباره غير متطور وبدائيا.. ومن هنا، فهناك افتراض مؤداه أن الأديان الأخرى الآن (غير المسيحية)، بما فى ذلك الأديان الكبرى، سوف تخلى مكانها سريعًا للمسيحية..

وقد يكون «الأبرشيون - **Parishioners**» قد توارثوا فكرة أن كل من هم غير مسيحيين لا يزيدون عن كونهم أفضل قليلاً من الجماعات البدائية التى لم تتعد مرحلة الهمجية، لكن أفكار هؤلاء الأبرشيين بدأت تنهار وتتساقط حولهم شذر مذر، إذ إنهم قد اكتشفوا أن غير المسيحيين يمكنهم أن يعيشوا حياة حضارية راقية، وأنهم مهتمون - بعمق - برفاهية أبنائهم، وأنهم يخضعون معتقداتهم لبناء عقلى، مثلهم فى ذلك مثل المسيحيين.

لكل هذه الأسباب ، فإن الحقيقة الكبرى المتمثلة فى «عالم متداخل الأديان» بسبيلها إلى التأثير فى حياتنا اليومية بشكل متزايد . .

وتحاول هذه الدراسة أن تتناول جانبًا واحداً من قضية التداخل بين الأديان ، وهو بالتحديد العلاقة بين المسيحية والإسلام . .

إن الإسلام منافس قوى للمسيحية فى قيادة عالم اليوم - إن جاز لنا استخدام مثل هذه المصطلحات الاستراتيجية - ولا بد أن نتحقق من أن كثيراً من عقائد الآباء عن تفوق المسيحية لم يكن فى الواقع سوى مجرد اعتقاد فى تفوق الحضارة الأوروبية المادية ، أما على المستوى الدينى ، فالحقيقة أن الإسلام كان دوما ندا للمسيحية ، فالإسلام مثله مثل المسيحية لديه «كتاب» لعالمنا المعاصر»[٨] .

❊ ❊ ❊

- ٩ -

العلم.. والعلمانية.. والقيم

«إن المناهج العلمية لا تصلح لمجال «القيم - Values» . وإن قبولنا للمنهج العلمى واعترافنا بجدواه يؤدى بنا إلى نظرة علمانية للعالم، حيث لا مجال للقيم الدينية والأخلاقية . .

وكثير من المسيحيين الآن يقبلون كثيراً من جوانب هذه النظرة العلمانية للعالم، ويحتفظون فى الوقت نفسه بعقائد دينية بعينها تبدو متناقضة مع نظرتهم العلمانية الآنف ذكرها، أو يؤدى وضعهما متجاورين - العقائد الدينية والنظرة العلمانية - إلى نوع من المفارقة

ويشعر المتدينون من مختلف الأديان، بصعوبة الجمع بين النظريتين (الموقفين) بأشكال مختلفة»[٩]

* * *

- ١٠ -

شروط الحوار بين أهل الأديان

«إن الحوار - كما أرى - يتضمن الاستعداد للقبول الإيجابى بمقولات الدين الآخر رغم عدم التحول إليه، وبدون شىء من الاستعداد ليتعلم أصحاب كل دين من أصحاب الأديان الأخرى، يصبح الحوار نوعًا من الهداية المعطلة . .

إننا نحاول أن نعطى براءة لحوار حر (مفتوح) من هذا النوع . .

إن كثيرين يفهمون الحوار بطرائق مختلفة، فهو بالنسبة للبعض مؤتمرات ذات سلطات قد تنتهى بقرارات تم الاتفاق عليها . .

وهو، بالنسبة لآخرين، لا يعدو أن يجتمع عدد من اللاهوتيين المسيحيين والعلماء المسلمين ليصدروا قرارات فيما يتعلق بالمسائل الخلافية فى العقائد.

بل هناك من يتحدث عن الحوار بشكل منغلق، وكأنما ليس هناك إلا طرف واحد - مثل كاتب سويسرى اختتم كتابه الموسوم باسم : Dialogue With Islam بهذا النداء الذى وجهه للمسلمين :

«إننا نطلب بشكل خاص جدًا، نطلب منكم يا من تؤكدون بشدة القرابة القوية بين ديننا، أن تؤمنوا أن لدى الغرب شيئًا أكثر وأفضل، أفضل من ثقافتكم : إنه كلمة الحياة، رؤية مملكة الرب، وأمل لا نهائى، أمل لا ينتهى، نعبر عنه بكلمة واحدة وباسم واحد : إنه يسوع المسيح» .

* * *

إن مثل هذا الكلام ليس «حوارا» بأى معنى من المعانى ذات الأهمية . فمثل هذه العبارات لا تعنى شيئًا، أو لا قيمة لها حتى بالنسبة للمسلم الذى وصل إلى درجة عالية من التعليم . إنه، ببساطة، سيجيب عن مثل هذه النداءات غير المجدية، بأن لدية بالفعل «كلمة الحياة» ممثلة فى القرآن، وأنه يعتقد أن إرادة الله ومشيئته هى التى تحقق العدالة على ظهر الأرض . .

وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن «الحوار» المقصود هنا يكون بين أشخاص ينتمون إلى ثقافات مختلفة، اتضح لنا ضرورة أن يكون المشاركون فى هذه الحوارات أناسًا على درجة عالية من التفتح وتقبل ما يقوله الآخرون، فلا يمكن أن يكون هناك حوار من أى نوع ما لم يتكلم أحد الأطراف بينما يصغى الطرف الآخر لما يقال محاولاً أن يفهم، وهذا ليس بالأمر اليسير بين ثقافات غريب بعضها عن البعض الآخر، لأسباب منها اختلاف المفاهيم والقيم والأفكار، فإذا راح طرفان أحدهما مسيحى والآخر مسلم، يبحث كل منهما للآخر عن حجج وبراهين لدعم الخلاف بينهما، فهما سيجدان بسهولة كثيرًا من العناصر لدعم الخلاف، لكن هذا لن يؤدى إلى قيام حوار حقيقى. فمن شروط الحوار الرغبة فى التعلم، وإذا كان الأمر متعلقًا بثقافات مختلفة، فهذا يعنى صبرًا عظيمًا ومحاولة التآلف والتعارف بكل جوانب العقلية الأخرى، أو العقلية الغريبة، والتدرب على فهم عقليات الآخرين يجعل المرء أكثر تفتحًا، فإذا تقبل القيم الموجودة فى الدين الآخر، فإنه سيبدأ فى البحث عن سبيل لإدماجها فى دينه. فالمؤلف المسيحى السويسرى - الذى اقتبسنا من كتابه تلك العبارات - كان يشجع المسلمين - بلطف ودماثة - على أن يضيفوا إلى دينهم شيئًا دون أن يتخلوا عن الجزء الأساسى من تراثهم، ولكنه فشل فى أن يرى - كمسيحى - أنه لا بد أن يسأل نفسه فيما إذا كان لدى الإسلام شىء يقدمه ليضاف إلى المسيحية؟

ربما كانت ثقة المسلم العادى العميقة فى الله، هى الفكرة التى يجب أن تأخذها المسيحية من الإسلام.

* * *

ويبدو ضروريًا لحوار حقيقى أن يفرق كل مشارك فى الحوار بين رسالة دينه الإيجابية، وبين حججه الدفاعية، فتكرار الحجج الدفاعية يعنى الرغبة فى منع معتنقى هذا الدين من الخروج عنه، كما يحفز معتنقى الديانات الأخرى على صياغة حجج مضادة، والدفاعات والحجج المختلفة قد تنشأ بين أصحاب دين واحد على تفسير نص، مع أن هذا النص يلقى اعترافا من الطرفين المتجادلين. .

* * *

وفى الحوار مع الإسلام، يجب أن يتخلى المسيحيون عن فكرة أن محمدا لم يتلق وحيا، والأفكار الشبيهة. . »[١٠].

الهوامش

(١) مونتجومرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ٢٣ . ترجمة : د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ . طبعة القاهرة ـ مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) المصدر السابق . ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥١ـ٥٥ ، ٨٣ ، ٢٠٦ ، ١٧٠ .

(٣) المصدر السابق . ص ٦٦ ، ٨١ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٦٦ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٢٨ ، ٦٣ ، ١٧٦ ، ١٧٨ .

(٤) المصدر السابق . ص ٦٥ .

(٥) المصدر السابق . ص ٦٧ ، ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٨٨ ، ٢٢٣ـ٢٢٦ ، ٣٣ ، ١٩١ .

(٦) المصدر السابق . ص١٧٩ـ ١٨٣ ، ١٨٥ـ١٨٨ ، ٤٥ .

(٧) المصدر السابق . ص ٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٨) المصدر السابق . ص٢٨ ـ ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٩) المصدر السابق . ص٣٢ .

(١٠) المصدر السابق . ص ٢٤ ، ٢٢٧ ـ ٢٣٠ .

❊ ❊ ❊

رقم الإيداع ٢٠٩٨٩ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-1450-9

احترام المقدسات

• عندما تحدث القرآن الكريم عن حماية المسلمين لمقدسات الديانات، رتبها ترتيبا تاريخيا. فجاءت المساجد فى ختامها! ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾..

• وعندما أعطى رسول الله ﷺ العهد للنصارى، أعلن حمايته لكنائسهم وصلبانهم... وكذلك صنع المسلمون على امتداد تاريخ الإسلام.. فحررت الفتوحات الإسلامية كنائس الشرق من الاغتصاب الرومانى، لا لتجعلها مساجد، وإنما لتردها للنصارى يتعبدون فيها!..

• أما الغرب الاستعمارى.. فإن تاريخه مع مقدسات الإسلام قد سوّد صفحات هذا التاريخ:

- لقد حوّل الصليبيون المسجد الأقصى إلى إصطبل للخيول، قرابة التسعين عاما!!.. وهم يساعدون الصهاينة على هدمه هذه الأيام!!..

- ودنست خيول نابوليون الأزهر الشريف.. ومزق جنوده المصاحف.. ودنسوها.. كما يصنع الأمريكان اليوم فى معتقل "جوانتانامو"!!

- وفى أحدث فصول هذا العار الغربى.. نشهد الآن تدمير الأمريكان لمساجد العراق.. والإجهاز على الجرحى فى هذه المساجد!!.. حتى لقد دمروا فى مدينة "الفلوجة" وحدها أربعين مسجدا - من جملة مساجدها السبعين -!..

• وللكشف عن موقف الإسلام من المقدسات.. وموقف الغرب من مقدسات الإسلام.. يصدر هذا الكتاب؟

خيرية الأمة

• كى يكون المسلمون خير أمة، لا بد أن يحققوا شروط هذه الخيرية: الأمر بالمعروف.. والنهى عن المنكر.. والإيمان بالله.. وإلا فإنه ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ [النساء: ١٢٣].

• أما النزعة العنصرية فى اليهودية التلمودية، فإنها تجعل المولود من أم يهودية، من شعب الله المختار.. الأخص من جميع الشعوب.. والمقدس دون جميع الشعوب.. والذى يعلو فوق جميع الشعوب.. والمخلوق ليأكل كل الشعوب أكلا.. دون أن يقطع لهم عهدا، أو تشفق عليهم عيناه؟!!!

فالولادة تكسبه جميع هذه الحقوق.. حتى ولو كان ملحدا.. أو ابن زنا!!!..

• والغرب - فى هذه "الملهاة - المأساة" - أن تتحول هذه "النزعة العنصرية" إلى عقيدة "للمسيحية - الصهيونية".. التى توجه المشروع الاستعمارى الغربى ضد الإسلام والمسلمين!!..

• إنه "الوهم".. الذى تحول إلى "واقع".. تكشف عن حقيقته صفحات هذا الكتاب.

عوامل تفوق الإسلام «شهادة غربية»

• ".. لقد شهدت بدايات القرن العشرين (موضة) تقديم القرآن للقارئ الأوروبى باعتباره مختارات من اليهودية والمسيحية!.. والواقع أن هذه النظرة هى من بقايا الدعاية المسيحية إبان الحروب الصليبية، عندما كانت أوروبا ترتعد فرائصها أمام جيوش الإسلام، فتحاول تقوية دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام!...".

• ".. لقد أكد الإسلام استقلاله عن اليهودية والمسيحية.. بل وكان متفوقا عليهما.. وأرقى منهما...".

• ".. إن القرآن هو كلام الله وحده.. وعندما تحدى محمد أعداءه أن يأتوا بسورة من مثله.. كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى: لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله. وما كان لبشر أن يتحدى الله...".

• "وإن إشارة القرآن إلى تحريف لحق باليهودية والمسيحية. هو قول صحيح...".

• "والإسلام هو مستودع دين إبراهيم فى مرحلة نقائه الأولى...".

• "ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيو(ن) بيهوديتهم ومسيحيتهم فى حالة نقاء، لاعترفوا بالرسالة التى ألقاها الله إليهم عن طريق محمد.....".

• تلك سطور من الشهادة الغربية.. التى تقدمها صفحات هذا الكتاب؟

